

لَيْلِي وَدُمُوعِي

يوسف السباعي

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

لَيْلَةٌ بِلَا عَمَى

كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة وأنا فى طريقى الى البيت ،
وكنت مرهقا مكثودا ، ضيق الصدر بمتاعب اليوم ، ولم أجد
هناك ما يدفعنى الى التعجيل بالعودة الى الدار ، وداخلى احساس بالحاجة
الى الانطلاق بالعربة فى الطرق الخالية بأطراف هليوبوليس .

ولم أعرج على البيت وتركت العربة تنطلق بى فى شارع
السباق ، وأحسست من فراغ الطريق وسكونه وهبة الهواء الرطب التى
لفحت وجهى بشيء من الانتعاش ، فتمهلث وأخذت أدندن بصوت
خافت .

ولم يبدو على طول الطريق أثر لعابر ، وقامت الدور على يمينى
ساكنة مظلمة الا من بضعة أضواء تناثرت من نوافذها ، وعلى اليسار
امتد سور السباق المنخفض وقد ترامى وراءه الفراغ الفسيح يلفه وشاح
من الوحشة والظلمة والصمت المطبق .

وعلى أضواء الطريق الباهتة .. ووسط سكونه المخيم بدا لى شبح امرأة تستحث الخطا . وترامى الى أذنى وقع خطواتها جادة متعجلة .. كأنها خطوات جندي فى طوافه .

وبغريزة الرجل .. ازدادت تمهلا .. وأخذت أرقب شبحها . المقبل .. الذى لا أكاد أميز منه سوى حدوده الخارجية وطريقة سيره .

وأنا أميز المرأة بطريقة سيرها وهيكلها .. وأكاد أحس بمدى جمالها أو قبحها من هذين المنظرين . ولا أظنهما خدعانى الا فى القليل النادر .. ولقد أحسست من خطوات المرأة المقبلة وتخطيط شكلها فى الضوء الباهت .. أنها شئ لطيف يستحق الرؤية .. أو أكثر من الرؤية ان أمكن .

وازداد تمهلى وهى تزداد اقترابا .. وأيقظت الوحدة والظلمة ونسمات المرأة المقبلة مشاعرى وأرهفت حواسى ، فانحرفت بالعربة الى الجانب الأقرب إليها - وهو جانب السباق - حتى أتمكن من رؤية وجهها .

وعندما دنت من العربة .. أحسست أن ضوء الطريق الخافت لن يهيب لى فحصها جيدا .. وأضاءت ضوء العربة الكبير .. فسطع عليها فجأة وبدا عليها الضيق والانزعاج وبدأت لى فى خطواتها العجلى وسيرها المندفع كطائرة أمسك بها ضوء كشاف وهى تحاول الفرار منه .

وخرجت عن نطاق الضوء .. واستمرت فى سيرها العجل .. وخطواتها الجادة ، غير متلفتة حولها .. أو ملقية التى أدنى اهتمام .

ولم أحاول التوقف .. فقد كانت الفترة التي وضعت خلالها في نطاق الضوء . كافية لكشفها .. وكافية بالتالى لأن أواصل السير بعد أن أحسست أنه ليس بها مايجذبني اليها .. أو يغريني بها .. أو يهيبني لي فيها أى نوع من أنواع المغامرة . وبعد أن أيقنت أن المشية والهيئة قد خدعاني - الى حد ما - هذه المرة .

كان وجهها نحيلًا .. شاحبًا .. وقد بدت حول عينيها من تجاعيد الإرهاق والذبول .. ما دفع في نفسي الظن بأن عقدها الرابع يوشك أن ينفلت .

ودفعني الكسل وهزال الصيد الى معاودة الانطلاق بعربتي مفضلا الليل ونسماته الرطبة والاستمتاع بالسرحان والدندنة .

وواصلت السير فى الطريق مخلفا ميدان السباق ، والعمارات الجديدة المشرفة على ساحته ، عابرا خط المترو الجديد حتى بلغت نهايته وأدركت العربة حول المحطة الأخيرة عائدا فى طريقي من حيث أتيت .

ومرة أخرى .. بدا لى الشبح فى خطواته العجلى ومشيته الجادة الصارمة .. وسط الفراغ العريض والسكون الشامل .

وأدهشنى استمرار المرأة فى السير بلا هدف واضح . فقد كنت أتوقع أن تكون قد اختفت فى احدى الدور التى لاشك تقصد اليها .

ولم تكن فى سيرها مستعرضة ، ولاكان الطريق الخالى بميدان صيد .. حتى أظنها امرأة ليل تبغى صيدا .. ولاكان الوقت الذى تسير فيه أو المظهر الذى تسير به يدفعان الى الظن بأنها تمارس نوعا من الرياضة .

وعادت غريزة الرجل وحب الاستطلاع والرغبة فى المغامرة توقظ
حسى وترهف أعصابى .. وكنت قد أشرفت عليها .. وأوشكت أن
أجاوزها .. دون أن أستقر على أمر أو اتجاه .

وبلا خطة موضوعة .. أو تفكير مرتب .. أو هدف واضح ..
أوقفت العربى .. وفتحت الباب .. وفى لهجة جادة مقتضبة قلت لها .
- تفضلى .

ولم أشك فى أنى قد فاجأت المرأة بدعوتى .. بل بمجرد
وجودى .. وقفت تنظر اللى على ضوء العربى الداخلى الذى أضاءه فتح
الباب .. وقد بدت مشلوهة مأخوذة .. ومرت لحظة صمت .. حاولت
خلالها أن أضع خطتى للحظات القادمة وردودى للاحتتمالات
المنتظرة .. ووسائلى لمقاومة التمتع المحتمل .

ولكن المرأة فاجأتنى مفاجأة أشد ، وبلا كلمة تمنع .. أو سؤال
استفسار .. وفى ثانية واحدة .. كانت تستقر على المقعد بجوارى دون
أن يختلج فى وجهها عصب أو تفتح شفة .

وسمعت صفقة الباب .. وساد السكون .. وعم الصمت الا من
صوت أنفاسها تتلاحق لاهثة كأنها جواد فى سباق .

وسرت بالعربى .. ومضت برهة .. كان .كلانا يشرد ببصره من
زجاج النافذة الى الظلمات المترامية .. وكان على أن أفيق من المفاجأة
وأن أقول شيئا .. ألم أكن الصائد صاحب الدعوة ؟

وكانت أقرب الألفاظ الى شفتى .. كلمات التحية .. فقلتها ..
أكتسب بها الوقت .. وأتمالك أعصابى .. وأستعيد طبيعتى المغازلة
المرحة ، فقلت .

وأخيرا قالت :

- مساء الخير .

ولم تكن كلمات الغزل قد لانت على شفתי بعد . اذ لم أجد بها ما يدفعنى الى الغزل المخلص الطبيعى .. ووجدت رغبتي فى الاستطلاع تسبق قدرتى على الغزل المجامل المتكلف فقلت متسائلا :

- الى أين ؟

وبيساطة أجابت .

- أحضر العشاء .

(عشاء !!) وكادت تنفلت منى صيحة دهشة .. أسرع فى كبتها .. ولم يكن فى مظهرها المحترم ولا فى الساعة التى تسير فيها .. ماييرر خروج سيدة مثلها لإحضار عشاء ، وسألتها فى لهجة غير مصادقة :

- الآن ؟ تحضرين العشاء ؟

- أجل .. لقد عدت فلم أجد فى البيت طعاما .

- وأين البيت ؟

- فى احدى العمارات المطلة على السباق .

- ولكن أألم تكونى تعرفين أنه لا يوجد فى البيت طعام ؟

- انى أنسى هذه الأشياء .. لأذكر شيئا عن البيت الا عند

عودتى اليه .

مخلوقة عجيبة .. ورد أعجب !

وعدت أتساءل .. دون أن أُنبه الى أن المرأة الغريبة قد حوّلتني
من صائد ليل مغازل .. الى وكيل نيابة محقق .

قلت لها :

- ولماذا لم ترسلني أحدا من البيت يحضر لك عشاء ؟

- لأنه لا يوجد معي أحد .

وطرقتي ردّها طريقة مثيرة .. لقد بات أمرها سهلا ، من حيث
المكان ، فهي تقطن وحيدة .. ويمكنني أن أعود معها الى بيتها .

وكان عليّ أن أتولى احضار العشاء .. وبحثت في ذهني عن محل
ابتاع منه .. دون أن أسلك طريقا مطروقا يعرضني واياها للأبصار ..
وقبل أن أستقر على رأي سمعتها تقول .

- من فضلك اتجه يسارا .

الجانبى الذى يلف يسارا حتى ينتهى الى
، بالمارة والحوانيت .

وأجبت مترددا :

- لماذا ؟

- لأحضر العشاء .

- سأحضره لك أنا من محل أعرفه .

- لا داعى لأن تتعب نفسك .. يوجد يقال على الناصية لى عنده
نساب .

وحاولت أن أجادل ولكنها أصرت .. فلم أجد بداً من الذهاب الى حيث تريد .

ووقفت بها أمام البقال وهبطت من العربة لتعود بعد لحظات وقد حملت معها بضع لفائف صغيرة .

ومرة ثانية استقرت بجوارى وقلت متسائلاً :

— أعودين الى البيت ؟

وترددت لحظة قبل أن تجيب متسائلة :

— ألا تحب أن تلف بالعربة برهة ؟

— أجل .. أجل .. كما تشائين .

وأدريت العربة مرة أخرى الى شارع السباق وانطلقت أجول بها متبعا الطرق الخالية في أطراف الضاحية .

وبدا عليها الشرود وهى تستقر بجوارى فى هدوء وصمت ولم تعد أنفاسها تتلاحق لاهثة ، بل بدت عليها السكينة ، والطمأنينة والاستقرار .

وكان على أن أوالى بقية تحقيقاتى .. لأستفسر منها عما غمض على .

قلت أستدرجها من شرودها وأقطع عليها صحتها :

— أتعيشين وحدك .

— أجل .

- أأست متزوجة ؟

- لا .

- أأم تتزوجى ؟

- تزوجت وطلقت .. وتزوجت وطلقت .. وقد أتزوج وأطلق .. وأن الزواج فى حياتى من الحوادث العابرة وليس من الأحداث المقيمة .

- أليس لك أهل ؟

- لى .. ولكنى أفضل أن أقطن وحدى .. انى أعمل فى الفن .. أقوم ببعض الأدوار الثانوية فى السينما والمسرح وأحياناً أعود فى الليل متأخرة .. وأحياناً سكرى .. ولا أحب أن أقلق راحة أهلى أو أسىء اليهم .. ولذلك أفضل السكن وحدى .

ولم يكن هناك شك بعد هذا .. أن المرأة صيد سهل ميسور .. زواج وطلاق .. وفن .. وسكن وحدها ، وسهر ، وسكر .. كل هذا .. ترك المسألة كما يقولون (على بلاطة) .

ولكن المشكلة لم تكن مشكلة السهولة واليسر .. بل كانت مشكلة القابلية والإثارة .

ان المرأة لم تثرنى من اللحظة الأولى .. بوجهها الشاحب المرهق ، وهزالها البادى ، ولقد ظننت أن التلاصق والحديث قد يمنحنى شيئاً من الإثارة ، ولكن مشاعرى لم تثر بأكثر من الشفقة والعطف . ومع ذلك .. وبدافع من العناد .. والإصرار على اتمام المغامرة وجدتنى أسألها :

- ألا نعود الى البيت ؟
وبلهجة الاستسلام والرضوخ أجابت :
- أمرك .
ووقفت أمام باب البيت ، ووجدتها تجمع اللفائف لحملها
فقلت :
- عنك .. دعيني أحملها لك .
- لاداعى للتعب .. سأحملها أنا .
- أليديك ما يمنع من الصعود معك ؟
وصمتت .. ومضت بها برهة وجوم وتفكير وما لبثت أن
تساءلت :
- أتصر على الصعود ؟
- اذا لم يكن لديك مانع .
- أبدا .. لا مانع لدي .. فقط .. أخشى لغط البواب والسكان
وأكره أن يقولوا أنى أحضر رجالا فى البيت ، فانتظر حتى أتأكد أن
البواب قد نام وأن الطريق خال .. وسألّوك لك بضوء ثقاب من وراء
النافذة الكائنة فى أعلى الدار .
- واذا لم أر الضوء ؟
- يكون من الخير أن تنصرف .
ودلفت الى البيت وجلست أرقب النافذة الصغيرة التى أشارت
لى اليها .

أى أحقق أنا : ماذا يدفعنى الى الزج بنفسى فى مثل هذه المغامرة ؟ أدخل بيتا لا أعرفه فى منتصف الليل .. مع امرأة لا أكاد أعرف عنها الا ما حدثتنى به عن نفسها مما قد يكون باطلا مكذوبا .. وقد تكون ذات زوج .. وقد يكون بيتها كميناً لاصطياد المأفوفين السذج من أمثالى .. للاعتداء عليهم وسلبهم نقودهم !

ولماذا أفعل كل هذا ؟ من أجل امرأة لا أريدها .. ولا أشعر لها بأية قابلية ، ولم تثر فى جارحة .. أو تهيج لى حسا .

يجب على أن أنصرف .. وكفانى هذا القدر من المغامرة . خير لى أن أعود الى البيت لألوذ بأطراف الأمن والراحة وأجنب نفسى شر الكوارث والفضائح .

ومع ذلك لم أتحرك فكثيرا ما ينطلق تفكيرى فى ناحية ويتبدل تصرفى فى ناحية أخرى .. فأظل مقيدا فى موضعى لا سلطان لتفكيرى على تصرفاتى .

وتعلق بصرى بالنافذة العالية التى بدت وراءها رقعة السماء الداكنة بنجومها المتناثرة وقطعة ضئيلة من القمر تعدو على صفحتها نتف من السحب تحجبها تارة وتبرزها أخرى .

وفجأة لاح لى الضوء الباهت يتحرك وراء النافذة ، وأحسست بأعصابى تتوتر .. وبمشاعرى ترهف ، وتملكنى وهم شاعرى ممتع مشير .

نافذة فى السماء .. وسحب متحركة ، وقمر شاحب ، ووقفه مسترقة فى عرض الطريق المظلم الخالى .

وأخيرا ضوء باهت يتحرك المظلم الخالى .
لا .. لا .. انها مغامرة ممتعة .. أيا كانت المرأة التى سأغامر
من أجلها . .

وببلاهة المغامرين .. طرحت مخاوفى فى عرض الطريق واندفعت
اصعد السلم .

وبدأت ألهث عندما وصلت الى الدور الرابع .. فتوقفت وأنا
لأجد أمامى سوى سلم ضيق يؤدي الى السطح ولم أكن واثقا بالضبط
من عدد أدوار البيت .. كل ما كنت أعرفه أنها تقطن فى الدور الأخير
وأن نافذتها مطلة على الشارع .

ووقفت برهة حائرا وأنا أجد الأبواب أمامى موصدة دون أن
أعرف بابها .. ولم يكن من المعقول أن أغامر بطرق أحدها خشية أن
أخطئ بغيتى وأفضح نفسى فى مثل هذه الساعة من الليل .

وأنقذنى من حيرتى همسة استدعاء آتية من السطح ورفعت
بصرى فوجدت وجهها يطل من أعلى السلم الصغير .

وصعدت السلم فأفضى بى الى حجرة صغيرة فوق السطح .

وأحسست بشيء من الخذلان والخيبة وأنا أرقب الحجرة
المتواضعة بمظاهر الفقر والراثثة البادية منها ، وحاولت جهدى أن أخفى
مظاهر خيبتى وأن أسترها بمظاهر المرح المفتعل .

وسمعتها تتمتم فى استحياء وهى تقدم لى مقعدا من الخيزران :

- أنا متأسفة .. الحجرة لاثلىق بك .. ولكنك أنت الذى
أصررت على الصعود .

وزاد اعتذارها الخجل من احساسى بالشفقة عليها .. وصممت
على ألا أخذلها وأن أجعل من مرحى المتكلف مرحاً أصيلاً .. فقلت
ضاحكاً :

- انها مكان شاعرى لطيف .

ورمقتنى فاحصة ، ثم أطلقت من أنفها ضحكة قصيرة ساخرة
وأجابت :

- انك أنت المجامل اللطيف .

وخيمت على وجهها سحابة معتمة كبتت دوافع المرح فى نفسى
وأوقفت كلمات التهريج التى أوشكت على الاندفاع من شفتى .

ومدت يدها الى الدولاب الوحيد الموجود فى الغرفة فأخرجت
زجاجة ويسكى قد امتلأ نصفها ووضعتها على المنضدة الخشبية الصغيرة
بجوار اللفائف التى أحضرتها من البقال وقالت متضاحكة :

لعلك لاتمانع فى مقاسمتى الزجاجة .. انى فى حاجة اليها كلها ،
ولكنى على أتم استعداد للتنازل لك عن نصفها .

- انى لا أشرب .

- غير معقول !

- ولماذا ؟

- مغامر مثلك يطارد النساء فى منتصف الليل .. ويتبعهن الى
خدورهن .. ثم لا يشرب ؟ خذ لك كأساً .

- حقيقة لا أشرب .

- اذا أصنع لك فنجانا من الشاي ؟

- لا لزوم له .

- أو فنجانا من القهوة ؟

- لا داعى للتعب .

- اذا تشاركنى عشائى ؟

وسارت الى باب صغير يفضى الى دورة مياه ، وما لبثت أن عادت ومعها بضعة أطباق أخذت تفرغ فيها اللقافات : جينة وزيتون ، ومرتدلا ، وطرشى .

ودرت ببصرى فى أنحاء الحجرة .. فوجدت خليطا عجيا من البوهيمية والراثاة والفوضى .

فراش ما زالت أغطيته مشوشة من نوم الليلة السابقة ، ووسائد بدت عليها آثار الرأس بقذارتها الدهنية جلية واضحة ، وفردة شبشب مقطوعة ، وأعقاب سجائر ، وزجاجات ويسكى وبيرة ونبذ فارغة .. ومشجب تراكمت عليه مختلف أنواع الثياب النسائية : روب حريرى ، وكورسيه ، وفستان أزرق ، وعلى الأرض بجوار الفراش كوم آخر من الملابس وأعقاب السجائر والصحف والمجلات .

وبجوار الفراش والمشجب استند الدولاب على الحائط بمرآته المشروخة وضلفه التى لاتغلق وأحشائه المظلة بخليط عجيب من الثياب والأوراق والزجاجات ، وتتوسط الحجرة سجادة ناعلة استقرت عليها المنضدة الخشبية وأحاطت بها بضعة مقاعد من الخيزران ومقعد كبير متهالك منهار ، ووسط هذه الفوضى والراثاة بدا الشئ الوحيد المعنى

به فى الحجره والذى لم أجد لوجوده مبررا ولا معنى وهو رف للكتب
وضعت عليه عدة كتب مرصوصة بعناية .

وسألتها مستوضحا :

- يبدو لى أنك تقرئين كثيرا ؟

- ان القراءة هى الشئ الوحيد الذى أدمن عليه دون أن ينالنى
منه سوء .

وكانت قد انتهت من رص الصحف ورأيتها تمد يدها الى
المشجب فتناول القميص والروب وتجه الى الباب الصغير الذى
أحضرت منه الأطباق قائلة :

- دقيقة واحدة .. أبذل ملابسى .. انى أحب أن أجلس معك
على راحتى .. ألدلك مانع ؟

- أبدا .. افعلى كل ما يحلو لك ، ولاتقيمى لوجودى وزنا .

- معك حق .. ما دمت قد غامرت باحضارك هنا .. فليس لى
أن أخشى بعد ذلك شيئا .. ليس لدى أسوأ مما ترى .

ولم يكن هناك فى الواقع أسوأ مما أرى ، فلا أظن المرأة قد
أدخلت فى حسابها قط .. أن رجلا سيزورها فى حجرتها .. فالمرأة
التي تتصيد رجلا لتقدم له جسدها لايمكن أن تعرض عليه كل هذه
الخفايا المنفرة التي تحرص فى العادة على اخفائها .

ولقد قلت أنى من بداية الأمر لم أحس للمرأة بأى قابلية وأنى
كنت أرجو أن تثيرنى المغامرة نفسها ، ولكن جو الحجره بكل مافيه

من فوضى وقذارة وورثاة قد قضى على كل ما يحتمل أن تثيره فى نفسى
خلوتى بامرأة ، واندماجى فى جو المغامرة .

واختفت المرأة لتبدل ثيابها وبدأت أجد أن مهمتى التى كانت
فى مثل هذه المواقف - تنحصر فى استدراج المرأة - قد باتت تنحصر
فى كيفية التخلص منها دون أن أجرح مشاعرها أو أولم نفسها .

وعادت الى قائلة فى مرح :

أما زلت تصر على ألا تشاركنى الزجاجة ؟ سأضطر اذاً أن أشربها
وحدى .. واذا سكرت فأنت المسئول .. تفضل .. كل على ما قسم .
ولم تكن لى قابلية للطعام .. ولكنى خشيت أن أولهما برفض
مشاركتها اياه فاقتربت بمقعدى من المائدة وتشاغللت بالأكل .

وبدأت الخمر تتدفق من الزجاجة الى الكأس .. ومن الكأس الى
حلقها .. ورفع الشراب ستار الكلفة والاستحياء الذى كان يسدل
عليها وفك عقدة لسانها ، فاندفعت تثرثر فى خفة مستحبة ومجون
لذيذة ، وأخذت تروى النوادر عن عملها فى المسرح والسينما وتحكى
عن حياتها وراء الكواليس ، ومغامراتها مع المنتجين والمخرجين .

وظللت أجد فى حديثها تسلية ومتعة حتى بدأت الكأس تثقل
عليها وأخذت تخبو رويدا رويدا ذبالة المرح التى أشعلتها بضعة الكئوس
الأولى ، وبدأت تغمرها موجة من الحنين الحزين .. وكف لسانها عن
الثثرة ليستعيز عنها بالتهنيدات والآهات وبدأت عليها هيئة العشاق
السكرارى .

وهنا أحسست أن مشكلتى قد بدأت تتعقد .. وأن على أن أبدأ
مهمتى الشاقة فى التخلص منها دون أن أخذلها أو أولمها .

وقرعت المائدة بكأسها ومدت ساقها وألقت برأسها الى الوراء
وأطلقت تنهيدة حارة ، ثم سمعتها تهمس فى شبه أنين :

- دنيا !

ووجدت أن على أن أقطع سلسلة التنهدات ، وأن أحسر عنها
موجة الحزن المرهقة التى تعقب فى نفوس السكارى موجة المرح .
وقلت ضاحكا :

- سأروى لك آخر نكتة سمعتها .

ورفعت التى رأسها فوجدت فى عينيها عبرتين وعادت تقول فى
صوت خافت وكلمات بطيئة متقطعة :

- بل سأروى لك أنا أول مأساة عرفتها .

ومدت يدها فوضعتها على ظاهر يدي وأطبقت كفها عليها ثم
رفعتها الى شفتيها ومست باطنها فى رفق .

وأحسست بأنفاسها تلهب أصابعي .. ووجدت أن المسألة تتطور
سريعا .. وأن على - ما دمت لا أريد المغامرة - أن أضع حدا لها .
وسحبت يدي .. فسقطت يدها على المنضدة .. وقلت وأنا أهم
بالوقوف :

- يبدو أنك متعبة .. وأظن من الخير أن أنصرف ، وأدعك
تسترحين .

وانتفضت كأنما لسعتها عقرب وتساءلت وقد فغرت فاما :

- تنصرف ؟ لماذا ؟
- الوقت متأخر .. وأنت متعبة .
- أنا لست متعبة .. انى فقط سعيدة ، وأنا أبكى عندما أكون سعيدة .. أجلس أرجوك .
- وجلست . لقد كان على أن أحتمل .
- وعادت المرأة المخمورة ، الباكية من فرط السعادة ، تواصل سلسلة تنهداتها السعيدة .. وتهمس التى فى صوتها المبحوح :
- ألم تذق الحب ؟
- ذقه مرارا .
- مرارا ؟ أنت اذا لم تذقه .. ان الحب لا يذاق الا مرة واحدة ..
- اما ان ترديك صريعا . او تبعثك حيا .
- وماذا فعلت بك أنت ؟
- أردتني صريعة بالطبع .. لم تدع لى سوى هذا الحطام الذى تراه .
- وخشيت أن تطلب منى أن أبعثها حية فقلت لها مستضحكا :
- أنت ما زلت بخير .. أنك فى أوج صباك .
- صباى ؟! كم تعطينى من العمر ؟
- وأنا خبير بعمر النساء .. أعرف أنه لا يمكن أن يتعدى الثلاثين ..
- ولا بعد مائة عام ، وأنهن يعقدن على هذا السن فلا يتجاوزنه أبدا ..

وَعَرَفَ كَذَلِكَ أَنَّهُنَّ جَمِيعًا تَزُوجُنَّ فِي الثَّالِثَةِ عَشْرَةِ ، وَأَنْجَبْنَ الْإِبْنَةَ الْأُولَى فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةِ .

وَقُلْتُ لَهَا لَكِي أَقْطَعُ عَلَيْهَا خُطَّ الْجِدَالِ .

- ثَلَاثُونَ عَامًا ؟

-- انْقُصْ عَامَيْنِ .

- ثَمَانِيَةَ وَعِشْرُونَ ؟

وَهَزَتِ رَأْسَهَا مُوَافِقَةً .. وَهَزَزَتْ رَأْسِي مُسْلِمًا . لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ وَفَتْ وَلَا دَاعٍ لِلْجِدَالِ حَوْلَ عُمُرِ الْمَرْأَةِ الْهَازِيَةِ .. لَتَكُنْ فِي الثَّامِنَةِ عَشْرَةِ إِذْ أُرَادَتْ .. الْمَهْمُ هُوَ أَنْ تَتْرَكْنِي أَنْهَضُ ، وَهَمَمْتُ بِالنَّهْوِضِ مَرَّةً أُخْرَى عِنْدَمَا أَحْسَسْتُ بِكَفِّهَا فَوْقَ كَفِّي وَسَمِعْتُهَا تَهْمِسُ :

- كُنْتُ فِي الثَّالِثَةِ عَشْرَةِ .

وَتَوَقَّعْتُ أَنْ تَقُولَ (عِنْدَمَا تَزُوجُنِّي) ثُمَّ تَرْدِفُ بِالْجُمْلَةِ الطَّبِيعِيَّةِ (وَأَنْجَبْتَ ابْنَتِي الْأُولَى فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةِ) وَلَكِنِّهَا خَذَلْتَنِي وَقَالَتْ :

- عِنْدَمَا أَحْيَيْتِ .

وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ اسْتَسْلِمَ لِسَمَاعٍ قِصَّةَ حُبِّهَا .. الَّذِي أَرَادَهَا صَرِيعةً . وَتَرَكَهَا حَطَامًا .. وَاسْتَمَرَّتْ تَتَحَدَّثُ فِي صَوْتِهَا الْخَافِتِ وَتَنْهَدَاتِهَا الْمَتَقَطِّعَةِ :

- وَكُنْتُ وَقْتِذَاكَ .. عَلَى النَّقِيضِ مِمَّا تَرَانِي .. كُنْتُ سَمِينَةً .. سَمِينَةً جَدًّا .. وَكَانَتْ أُمِّي فَخُورَةً بِسَمْتِي .. كَأَنَّمَا كَانَتْ تَثْبِتُ بِي قُدْرَتَهَا عَلَى التَّغْذِيَةِ .. أَوْ كَأَنَّمَا كُنْتُ لَدَيْهَا وَزَةً أَوْ بَطَّةً ، وَلَمْ تَكُنْ

سمنتى كطفلة شيئا مزعجا .. بل كانت أمرا مستحبا .. وكنت طفلة نموذجية اذ كان وجهى جميلا متوردا ، وأنت تدرى قيمة سمنة الجسد وحلاوة الوجه فى الأطفال .. ولكن هذه السمنة المستحبة بدأت تنقلب أمرا بغیضا ، ولاسيما أنها أخذت تزداد عاما بعد عام ، وبدأت أضيق بسمنتى .. بعد أن بلغت الثالثة عشرة .. ودخلت فى دور المرأة .. ورغم ضيقى بها لم أكن أجدها شيئا مخيفا .. حتى أحسست بالحب .

- أحسست بالحب ، وأنت فى الثالثة عشرة ؟

- أجل .

- أهذا هو الحب الذى حطمتك ؟! انه عبث صبية .

- انتظر حتى أروى لك .. كان يقطن على مقربة منا ، وكانت بين أمى وأمه صداقة جيرة ، وأحبته أنا .. أحبته حبا حقيقيا . وليس عبث صبية كما تقول .. وأحب هو أختى النحيلة .. النحيلة بالنسبة لى طبعها .. أو ربما لم يحبها .. بل عبث معها .. ما سمعته أنت عبث صبية .. ولم يحاول أن ينظر الى فقد كان جسدى السمين .. لايمكن أن يجعل منى أكثر من مادة للفاكهة والضحك .. وطويت مشاعرى فى صدرى .. وكانت كتل الشحم الراسخة عليه .. أسمك من أن تشع عاطفة أو احساسا .. كنت يائسة منه ياسا مطلقا .. زاده ما سمعته من أمه .. من أنه يكره السمان .. ويحب الفتاة الخفيفة كالفراشة .

وتستطيع أن تتخيل أية عقد ركبته السمنة فى نفسى .. ولاسيما وأنا أسمع فى كل آونة من أمى هذه الجملة التقليدية (لو وضع وجهك على جسد أختك .. كوّنتما أجمل مخلوق فى العالم) .

وكان وجهى جميلا حقا .. ولكن ماذا يمكن أن يجدينى وهو على هذا الجسد الهائل .. لقد كنت على استعداد لأن أمنحه لأختى .. أو لأى مخلوق اذا استطاع أن يأخذ معه هذه الكتل الشحمية التى ترسب على .

وسمعت من أمه ذات مرة أنه قال ان وجهى جميل .. فبدأت أحدى فى المرأة .. وأحسست بشيء من الاعتزاز به .. ونفدت الى نفسى بارقة أمل لأول مرة .

ان هناك ما يعجبه فى .. وأنا أستطيع أن أفوز بحبه .. لو حطمت هذا السد الكائن بينى وبينه ، أعنى : جسدى .

وهنا بدأت معركة هائلة .. بينى وبين جسدى .. أو على وجه أدق .. الكتل الشحمية المرصوفة عليه .

وصممت على أن أكسب المعركة .. فقد كنت أشعر أنها معركة فى سبيل حياتى .

وسافر هو وقتذاك فى بعثة الى أوروبا ، وأحسست بشيء من الغبطة ، وبدأ لى أن سفره كان تدييرا من عند الله حتى أخلو بجسدى فى المعركة .. وحتى أفاجئه عند عودته بمخلوقة أخرى .. تكون أهلا لحبه .

واندفعت فى المعركة .. بجنون وقسوة .. وبغير رفق ولا هوادة ، ولست أريد أن أثقل عليك بالتفاصيل .. المهم هو أنى كسبت المعركة .. والدليل الواضح هو هذا الهيكل الذى تراه أمامك .. انتصرت .. ولكن بثمان .. ثمن ضخم .. كاد يكلفنى حياتى .

لقد أعياني (الرجيم) الحاد .. والإجهاد المضني .. وبدأت كتل الشحم تنهار ، وتنهار معها قواي ، وعندما بدأت أجنى ثمار المعركة وأختال بجسدي الضامر النحيل .. خرت صريعة .. بعد أن أصبت بنزيف في الرئة .. عرضني للإصابة بالسلس .. وكاد يدمر حياتي .

وصمتت المرأة وبدا عليها الإعياء وانتظرت أن تقول شيئاً عن نتيجة انتصارها .. عن الهدف الذي من أجله دخلت المعركة .. عن الريح الذي كانت ترجوه ، والشمس الذي كانت تأمل فيه .

وطال صمتها حتى اضطرت الى أن أستحثها قائلاً :

- وصاحبنا .. ماذا فعلت معه ؟

ورفعت كتفها وأطلقت من أنفها ضحكتها القصيرة المريرة الساخرة :

- لاشيء .. لاشيء أبدا .. عندما عاد .. كنت أرقد صريعة الداء .. وكانت جيرتنا قد انتهت منذ فترة طويلة .. ولم يكن لديه أقل فكرة عني .. كنت بالنسبة له شيئاً مجهولاً ، وعندما شفيت من الداء - ان كنت قد شفيت - طوتني أعاصير الحياة .. تزوجت وطلقت .. وتزوجت وطلقت .. واندفعت ألطم أمواج العيش .. فلم يبق مني أكثر مما ترى .. لقد ضاع انتصاري في المعركة سدى ، وذهب ريحي فيها هباء .

ومددت يدها مرة أخرى لتضعها على يدي ، ولكنني سحبت يدي ونهضت .. كانت الساعة قد بلغت الثانية وكان عليّ أن أعود الى البيت .

ورأيتهما تتطلع الى فى جزع متسائلة :

- إلى أين ؟

- أظن الوقت قد حان للعودة .

ونهضت متساندة الى المنضدة ونظرت الى نظرة راجية :

- ألا تبقى قليلا ؟

- سأتى اليك مرة أخرى .

وكنت قد وصلت الى باب الحجرة وفتحته مصمما على الخروج .. ومددت يدي أضافحها مودعا .. وأمسكت يدي لاتريد أن تتركها ، وهتفت فى توشل أليم :

- ألا تريدنى ؟

وأحسست أنى أذلت المرأة باضطرارها الى عرض نفسها .. وخيل لى أن خير ما أفعل هو أن أعوضها بالنقود .. وأن أدفع لها ثمن ما كان يجب أن أفعله .

ومددت يدي فأخرجت بضع ورقات مالية ، ثم دسستها فى يدها .

وبدأ عليها ألم مروّع كأن الأوراق جمره لسعتها ، ووجدتها تطبق عليها بعصية وتدفعها الى وتهمس :

- أهذا هو الذى أقبضه بعد طول انتظار ؟

وفجأة .. وكما يبرق وميض البرق .. بدت لى فى ملامحها
الشاحبة الهزيلة .. صورة قديمة باهتة لوجه سمين متورد ممثلى .. وجه
طوته الأيام ومحاه الزمن .

وتذكرت بيتنا فى حى السيدة .. والصبية الصغيرة السميننة التى
لمحتها فى دارنا مرة أو مرتين .

أحسست بأنى أكاد أتهاوى فى موضعى ونظرت الى الطير
الجريح وهو يترنح أمامى وقد بدت فى عينيه نظرة عتاب أليم ، وانساب
الدمع من مآقيه .

وشددت على يدها فى صمت مشدوه دون أن أجسر على أن
أقول شيئا .. وانحدرت على الدرج كالهارب من شبح ، أو العائد من
جنازة .

وعندما وصلت الى الطريق رفعت رأسى ، فوجدت شبحها فى
النافذة العالية تلوح بيدها فى بطاء وقد أحاطت بها الرقعة الداكنة والنجوم
المتناثرة وقطعة القمر المخفية وراء السحب .

وانطلقت بى العربة وأنا أطبق على عجلة القيادة بيد ، وباليـد
الأخرى أطبقت على الأوراق المعادة .. أو على الثمن المرفوض .

★ ★ ★

دُخَانٌ فِي لَيْلَتِي عَمَلَاءُ

كانت بداية ليلة حمراء .. وكل شيء بدا معدا بمهارة وذوق واتقان ،
وقد تعاونت مركبات الحجرة من عطر نفاذ ، وموسيقى ناعمة ،
ولهب حار يتراقص في جوف المدفأة ، وضوء خافت ينبعث من مصباح
أحمر أنيق .. تعاونت كل هذه المركبات .. بالإضافة الى الأنثى الساخنة
المتعطشة المتأهبة .. على خلق جو أحمر حار يرهف الحس ويؤجج
المشاعر ، ويدفع الدماء حارة في العروق .. ويهمس أو يصرخ .. في
غير تحفظ ولا حذر بأن فعلا ما - مما يسمونه منكرا - على وشك
أن يحدث .

وكانت تجلس متربعة على أريكة منخفضة في ركن الحجرة وقد
شمرت كمي وساقى ييجامتها الصوفية الفضفاضة المخططة .. التي
تعودت أن تسرع بارتدائها بمجرد أن تعبر قدماها بابه .. وبعد أن تنزع
عنها جميع ملابسها .

وكان يجلس متكئا برأسه على كتفها ممددا ساقيه على الأريكة .. وأحس بأصابعها تعبت في شعره وبأنفها يمس رأسه وبشفتيها تهمسان :

- أحب رائحة شعرك .

ولم يجب ، ورفع شفتيه فألصقهما بشفتيها في قبلة قصيرة ثم عاد يحملق في اللهب المتراقص .

ومرة أخرى عادت تهمس في حرارة :

- انى أحبك .. حبا كامنا في أعماقي .. أكتشفه كلما خلوت الى نفسى وحاولت سبر أغوارها .

ومرة أخرى لم يحرك شفتيه .. بالكلام ولا بالقبل .. وطال الصمت فعادت تهمس متسائلة :

- وأنت ؟

- انى أعزك ..

- ومن تحب اذن ؟

- لا أحب أحدا .. أو أحب التى معى ساعة أن تكون معى .

- هذا ليس حبا .

- هذا خير لى من الحب . عندما يحب الرجل عشر نساء .. يمتلك العشر .. وعندما يحب واحدة تمتلكه الواحدة .

- اذن فليس هناك من تمتلكك ؟

- أجل .

- ان فى هذا لى بعض العزاء .. وبعض الأمل فى أن أمتلكك يوما .

وساد الصمت مرة أخرى ومدت يدها فتناولت كأسا من فوق المنضدة ، ورشفت منه رشفة .. ثم أعادته .. وتساءلت فجأة :

- ألم تحب يوما ؟ ألم يمتلكك أحد ؟ أأمضيت حياتك هكذا .. لاتحس بنعمة الامتلاك ؟ أتجلس على قارعة الحياة .. لاتعرف سوى الإيجار .. ايجار نفسك و ايجار الغير ؟
وضحك وقال وهو يرفع اليها عينيه :

- الإيجار يمنحنا نعمة الحرية .. ومتعة التغيير والتبديل والانطلاق ، وقتما نشاء وحيثما نشاء .

- ومتعة الاستقرار والسكينة والطمأنينة .. والحب ؟ ما رأيك فيها ؟ .. لقد كنت أظنك من قراءتى لك .. لاتفعل شيئا سوى الحب .. عجيب هذا التناقض بين ما نتوهمه فى الكتاب وما نجدهم عليه .. أمعقول أنك - مع كل ما كتبت - لم تحب أبدا ؟ لابد أن تكون اذن مخادعا كبيرا !

ولم يجب ، وبدا فى صمته كأن الحديث لايعنيه فهمست به عاتبة :

- لماذا لاتجيب ؟ حدثنى عن الحب ؟

وحول اليها بصره ناظرا اليها فى شىء من الدهشة وقال متسائلا :
- ماذا بك الليلة ؟

- انى أحبك ، واذا كنت لا تريد أن تبادلنى الحب .. فبادلنى أحاديث الحب .. ألم تحب ؟

وعاد يحملق فى اللهب المتراقص وبدا عليه شرود حزين وأجاب فى لهجة مقتضبة وصوت خافت :
- أحببت مرة .

- حدثنى عنها .. متى ؟ وكيف ؟

وبدأ كأنما ينفض عن نفسه شبحا جثم عليه وقال وهو يمد يده ليتناول كأسه ويهمم بالنهوض :
- دعينى من هذا .. سأروى لك آخر نكتة .

وأحاطته بذراعيها وأبقته حيث كان وقالت فى اصرار :

- لا أريد أن أسمع نكتا .. أجلس وحدثنى عن الحب ..

وأحس بأصابعها تعاود العبث فى شعره وبأنفها يتشممه وبشفتيها تتسللان الى جبينه وعينيهِ ، وغمرته بموجة تحنين جارفة أثارت فى نفسه شجنا كامنا وذكرى هاجعة ، ووضع الكأس جانبا وأخذت الألفاظ تنساب من شفتيه بطيئة هامسة كأنما يحدث نفسه .

- بدأت الصلة بيننا بالكتابة .. وكانت تقطن احدى بلدان الساحل ، وقرأت رسالتها أول مرة ضمن عشرات الرسائل التى يحملها البريد الى طالبة صورة أو امضاء أو كتابا أو اجابة لبضعة أسئلة أو حلا لمشكلة .. ورددت عليها فى بضع كلمات مهذبة مهديا اياها الصورة أو الكتاب - لست أذكر - الذى طلبته ، وردت على - كما يرد عني سواها - شاكرة فى رقه .. واسترسلت تعبر فى بضعة سطور عن

اعجابها بي وتقديرها لى .. ولم تكن فى هذا أيضا تفترق كثيرا عن العشرات غيرها .

وتبادلنا بضعة رسائل تقدير من جانبها وشكر من جانبى ، وبدأ التقدير يتطور الى أكثر من تقدير ، وبدأت الرسائل تطوى فى خلال سطورها كلمات الصداقة والأخوة .. والصلوات الروحية وغيرها من التغييرات التى لايفصلها عن الحب سوى خيط دقيق .. أو التى يستغلها الحياء للتعبير عن الحب .

وحتى هذه التعبيرات لم تميز صاحبة الرسالة عن العشرات غيرها فقد كانت كلها تحمل مثل هذا التطور ، وكان على أن أجيبن جميعا كصديقات صغيرات عزيزات .. ولقد كنت أحس لهن كذلك فعلا ، فكنت حريصا فى ردى على ألا أفرط فى الرقة .. فأمنحنهن أملا أحقق أو أفرط فى الجفوة فأصدهن صدا موجعا .

وحملت التى احدى رسائلها أمنيته فى أن ترانى قائلة : ان تلك قد باتت أقصى أمانيتها وأنها لا بد مع الزمن أن تنالها . وحتى هذه الأمنية لم تستطع أن تميز صاحبة الرسالة فقد حملتها التى غيرها من الرسائل . وأنا أعرف نفسى جيدا .. أعرف أنى لأستحق شيئا من هذا كله ، ولم أملك الا أن أضحك من نفسى ساخرا أن تكون رؤياى قد أضحت أمنية .. لكائن من كان .. فما بالك بهؤلاء الصغيرات العزيزات اللاتى أحب أنا نفسى رؤيتهن !

وهيأت لى الظروف فرصة السفر الى بلدها .. ووجدتها فرصة سانحة لأن أراها هى وغيرها من أصحاب الرسائل المعجبة اللاتى يقطن نفس البلد ويتمنين رؤيتى . فأرسلت اليهم أنبئهن بقرب قدومى اليهن .

وكان علىّ اما أن ألقاهن جملة في موعد أحده لهن في الفندق الذى أنوى النزول فيه .. أو ألقاهن فرادى ، كل في موعد مختلف ، وكان لكل طريقة عيوبها ومزاياها . فالأولى تفضل الثانية فى أنها توفر علىّ الوقت والجهد فى الحديث ، والثانية توفر علىّ الحرج فى جمعهن سويا وفى خذلانهن عندما ترى كل منهم أنها ليست الوحيدة التى أخصها بالكتابة واللقاء .. وأنها لاتعدو واحدة مجهولة ضمن بقية المعجبات .

وفضلت الطريقة الثانية ، فقد خجلت أن أحيط نفسى فى الفندق بمظاهرة فتيات .. ووجدت أنى أول من سيحس بالحياة والحرج أمامهن .

واخترت منهن خمسا .. كنت أحس من كتابتهن شيئا - حرارة أو لطفا أو رقة - يميزهن عن غيرهن ويجعلهن أقرب الى نفسى .

وكانت هى .. ضمن هؤلاء الخمس .. اللاتى كتبت اليهن أنبهن بقدمى وأحدد موعد اللقاء .

ولم يكن لدى من الفراغ سوى

بينهن ، فحددت المواعيد الخمسة

الظهر وتنتهى فى التاسعة .. وقدرت ألا يريد سبى ح .

نصف ساعة تاركا ربع ساعة بين رحيلها ووصول الأخرى حتى لا يحدث ارتطام بينهن .

وذهبت الى البلدة وأتممت أعمالى بها ، وقبيل الرابعة فى الأمسية

الموعودة اتخذت مجلسى أمام منضدة فى ركن التراس المطل على

الشاطيء وكنت قد كتبت ورقة بأسمائهم وأمامها موعد لقاء كل منهم حتى لا أخلط بينهم .

وكنت أعرف سلفا أى نوع من الفتيات أو شك أن ألقى ، ولم أحاول أن أخدع نفسى فأمنيتها بمتعة منتظرة .. بل أقنعتها بأنها تؤدي واجبا لا بد من تأديته .. ولم أكن أتوقع قط أن أبصر بهن أى نوع من أنواع الجمال والإغراء .. وأكثر من هذا كنت أعرف من خلال رسائلهن ، سيذهب بها الحياء والارتباك الذى سيصيبهن عند أول لقاء لى .. وأن على أن أمضى نصف الساعة التى سأجلس خلالها مع كل منهن فى دفعهن الى الحديث وفى خلق موضوع له .

وحلت الرابعة - موعد قدوم الأولى - وأنا أرقب مدخل التراس ، محملا فى كل قبiche صغيرة مرتبكة ، معتمدا على أن تعرفنى هى فتتجه الى .

ومضى ربع ساعة ولم يحضر أحد .. ونصف ساعة ولم يحضر أحد .. وبدأت أسترخى فى مقعدى مخرجا الأولى من حسابى ، تاركا لنفسى فرصة ربع ساعة راحة قبل أن أبدا فى انتظار الثانية .

ولكن .. لم يكد يتجاوز العقرب النصف بيضع دقائق .. حتى لمحت فتاة تجتاز المدخل ووجدت أعصابى المسترخاة تتوتر ، واحساسى يرهف .. وأخذت أرقبها جيدا .

ولم أتوقع قط أن تكون احدى المقيدات فى جدول مواعيدى .. اذ لم يكن ينطبق عليها الكثير من المقاييس التى فرضتها عليهن والصور التى تخيلتها لهن .. حقيقة كانت الى حد ما صغيرة .. والى حد ما .. مرتبكة مترددة ، كمن تبحث عن شىء .. ولكنها لم تكن قبiche أبدا ..

بل كانت جميلة .. الجمال الأمثل الرقيق الذى يمس شيئاً فى أعماقى ..
والذى أشعر أن كل حواسى قد شذت اليه .

وأخذت أرقبها .. ليست مراقبة منتظر موعدا .. أو متوقع لقاء ..
بل مراقبة ملهوف مأخوذ .. متناسيا كل شيء عن معجباتى وعن جدول
مواعيدى .. وتطأيرت منى كل مظاهر الكبرياء والغرور الذى كان
يفرضه على الموقف فرضا .

ورأيت خطواتها تتباطأ وعيناها تبحثان فى حيرة بين المناضد
ووجدت الحمق البيانى الذى لا أستطيع التخلص منه يدفعنى الى أن
أتمنى أن تكون احداهن .. وأن أذهب اليها لأقول لها أنى أنا هو أنا ..
وقبل أن أراجع حماقتى الصببانية كانت عيناها - فى جولتها الباحثة -
قد وصلت الى الركن الذى أجلس فيه .. والتقتا بعينى .. وفى ثوان
معدودات تصاعد الدم الى وجهها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة جميلة
وتلألأت عيناها بفرحة ممزوجة بدهشة .. ثم وجدتها تتجه الى فى
خطوات سريعة وجلة .

ونفضت ألقاها فى لهفة أطاحت بكل ما رسمته فى ذهنى من
سمات التؤدة والهيبة التى كان يجب على أن ألقى بها معجبنى . وشذت
على يدي ، ومازالت تعلو ثغرها الابتسامة الحلوة الخجلة .. وقالت لى :

- لم أكن أتوقع أن أميزك بهذه السهولة .. انى أشعر أنها ليست
المررة الأولى التى أراك فيها .. لقد عرفتك بمجرد أن التقت عيناى
بعينيك .. وأنت .. أعرفتني ؟

وقلت وأنا أقدم لها مقعدا وأجلس قبالتها .. محدقا فى وجهها :
- طبعاً عرفتك .

ولم أكن مدعيا فى قولى .. فقد أحسست أنى عرفتھا من الصورة
المرسومة فى باطنى منذ عشرات السنين .

ورمقتنى بعينيهما الحلوتين الباسمتين وقالت مازحة :

- من أكون ؟

ولمحت الساعة فى معصمى .. كانت الخامسة الا ربعا ..
وأحسست أنى قد أسقط فى يدى .. من تكون ؟ الأولى .. أم
الثانية ؟ .. كوتر .. أم بثينة .. الاحتمالان جائزان ، فقد تكون كوتر
متأخرة فى موعدھا .. أو بثينة مبكرة فيه .

ولو قلت لها هذه وكانت تلك .. أو تلك وكانت هذه ..
لجرحت مشاعرھا .. وأظهرت أنى لا أتوقع مجيئھا هى .. بل كنت
أنتظر أخرى .. وأنى أخطأت فيها .. وتحتم عليها الرحيل لتترك مجالا
للأخرى التى قلت اسمھا .

وكرهت أن أفقدها بعد أن أقبلت على بمثل هذه اللفهه ، وبعد
أن أقبلت أنا عليها بلهفه أشد وكأنى لا أنتظر سواھا .

وكانت لم تزل تنظر الى فى ابتسامتها الرقيقه ، وقد بدت عليها
أقصى مظاهر الرضاء والسعادة .. وعادت تتساءل :

- لم تقل من أكون ؟

- وكان على أن أقول شيئا لايفضح أمرى ، وأن أستدرجھا فى
الحديث ، علھا تفصح فى أقوالھا عن تكون .

وقلت محاولا اكسباب وقت يمنحنى فرصة التفكير :

- أعتقدين حقا أنى لا أعرف من تكونين ؟

ومرّ بذهنى أن خير طريقة أعرفها بها هو أن أعرف منها حقيقة موعدها ، فإذا كان الرابعة فهي كوثر ، وإذا كان الخامسة فهي بشينة .
وقبل أن تجيبني أردفت قائلا :

- كيف لا أعرفك .. أليس بيننا موعدك ؟

- أجل .. لقد تأخرت عليك .. وكنت أخشى الأجدك .

- أتناخرين دائما فى مواعيدك ياكوثر ؟

وأحسست بموجة من السعادة تغمر وجهها وأنا أنطق باسمها ..
ولم يكن من العسير علىّ أن أعرفه وأغامر بنطقه بعد أن اعتذرت عن التأخير ، فأيقنت أنها لابد أن تكون فتاة الرابعة كوثر .. ولكنى أحسست بمشكلة جديدة تطل برأسها بيننا .

كانت الساعة قد بلغت الخامسة الا الربع ، ولم يبق سوى ربع ساعة على الموعد الثانى ، وإذا كانت فتاة الرابعة قد تأخرت نصف ساعة فليس هناك من يضمن لى أن فتاة الخامسة لن تأتى مبكرة عن موعدها .. ولاسيما بعد أن بت أتمنى تأخيرها ، والأقدار تأبى دائما أن تنيلنا ما نتمنى .

وتملكنى قلق وحيرة ، فقد كرهت أن يحرمنى مخلوق - أيا كان - من هذه الأمنية العذبة الجالسة أمامى .. وأحسست أنه لا توجد على ظهر الأرض قوة تستطيع أن تنزعها منى بعد بضع دقائق .

ووجدت هذا الشيء الذى أثارتة فى أعماقى .. يملؤنى رغبة فى أن أفر بها بعيدا .. وتلفت حولى وأشرت الى الجرسون ، وبدل أن

أطلب لها شيئا نقدته حسابه عما طلبت وبمنتهى البساطة ، وبمنتهى الحمق وقلة الذوق نهضت قائلا :

- المكان مزدحم .. (ولم يكن مزدحما) .. ألدك مانع من أن تمشى على الشاطئ .. أو نذهب الى أى مكان آخر ؟

ويبدو أن فرحتها بلاقائي كانت على استعداد لتغطية كل مساوئي وتصرفاتي غير الطبيعية ، فقد رأيتها تتبعني فى استسلام ومازالت يكسو وجهها الإشراق والسعادة والابتسامة المتلافة .. وأحسست بالراحة تملأ نفسى وأنا أسير وأياها متلاصقين على رمال الشاطئ .. ووجدتني أستعيد رسائلها فى ذهنى .

كانت أرقهن قولا ، وأحرهن مشاعرا وأجملهن روحا ، وأشدهن صلة بى واجترأ فى الحقوق على ، ولم أكن أشك - من سابق تجاربي - فى أنها لايد أن تكون أقبحهن شكلا .. فقد علمتني التجارب أن جمال البعد غالبا ما يتناسب تناسبا عكسيا مع جمال القرب ، وأن الله يوزع المزايا على الناس بقدر .. اللهم الا قلة شاذة يتجمع فيها الفضل كله أو السوء كله .

وتحدثنا كثيرا ، ولم يصعب على أن أزيل عنها الرهبة الأولى . وأن أجعلها تؤمن بسهولة .. بعد أن كانت - على حد قولها - لاتصدق أنها معى وأنها تسير بجوارى جنبا الى جنب .. بأنها أصبحت أقرب الأصدقاء التى .

فعلت هذا بلا جهد ولا كلفة .. لم أتكلف سوى أن تركت نفسى على سجيتها . وليس أسهل على نفسى من الانطلاق على سجيتها

عندما أكون بجوار شخص أحبه ، ولقد أحسست من اللحظة الأولى التي رأيت فيها هذه المخلوقة .. أنى أحبها .

وأنا على مرّ السنين .. وعلى ما يفرضه على السن من تودة واحتشام .. لا أستطيع أن أنتزع نفسي من طفولتي وصباى فى لحظة انسجامى مع من أحب ، فانطلقت مع الحلوة الرقيقة المرفهة السائرة بجوارى أفرح وأضحك خارجا عن كل قيود الكلفة والتزمت داخلا فى نفسى الشاعرة الذائبة .

وقلت لها الكثير ، وقالت لى الكثير .. حدثتني عن أمها وأبيها وأخواتها ومدرستها وزميلاتها ، ثم عند بدء قراءتها لى وكتابتها التى وأحاسيسها نحوى .

وكان البحر قد اقتضم الشمس وأخذ فى ابتلاعها على حافة الأفق . وامتدت يد الظلمة لتمسح بقايا الدماء المنتشرة فى الشفق . ودون أن نشعر وجدنا الظلام يحوطنا فيما أحاط .. واستقر بنا المقام على حافة صخرة يتطاير من حولها الرذاذ ويتلاطم الموج .. ورأيتها ترفع التى وجهها وعلى شفيتها ابتسامتها المشرفة وهى تتساءل فى استحياء :

- لم تقل لى حتى الآن .. كيف وجدتني ؟

- لم أقل لك حتى الآن ؟ . أحقا تعنين سؤالك هذا ؟

- أقلت لى ؟

- لم أقل بلسانى .. ولكن ألم تحسى أنت كيف وجدتني ؟ وبعد أن نسيت نفسي .. ونسيت كل ما حولى وأخذت أسير معك كصبية العشاق تسأليني كيف وجدتني ! لقد كان مفروضا ألا يزيد

لقائى لك عن نصف ساعة أعتذر لك بعدها بأنى على موعد ، ثم ألقى
بعدك أربع معجبات أخريات ، ولكنى لم أكد أراك حتى اختطفتك
وفررت بك الى هنا . أعرفت الآن كيف وجدتك ؟

وبدا على سيمائها التأثير وأطبقت شفيتها على ابتسامتها الدائمة ..
وسمعتها تهمس فى سرور وقد أطرقت برأسها وحدقت أسفل الصخرة :

- عجيبة هذه الأحلام !

- كيف ؟

- لقد حلمت ليلة أمس أنى معك .. كان حلما لذيذا ما قضيت
فى حياتى لحظات أمتع منه .

- قصيه على .. لعلّى احققه لك .

ورفعت رأسها وارتسمت على شفيتها ابتسامة مستحيية وقالت
فى حياء لذيذ :

- لأستطيع .. انى أخجل أن أقصه .

- أين كنا ؟

- فى حديقة دارنا ، وقد أتيت تسأل عن عنوان مجهول ..
فعرفتك ، وادعيت أن عنواننا هو ماتريد ، وتحايلت على ادخالك ..
وجلست معى فى الأرجوحة الكائنة أسفل حجرتى والتى تعودت أن أقرأ
فيها كتبك ، وعندما اعترفت لك بخدعتى قلت انك تعرفها وأنتك تريدنى
أنا ، وكان الليل مخيما ، والسكون سائدا ، والقمر مطلا ، وجلسنا نقرأ
سويا .. ثم أدركت لك الموسيقى .. التى كنت أطلب منك فى رسائلنى
سماعها . وسألتك أن تنهض لترقص معى .

وصمتت مطرقة برأسها ، فعدت أتساءل :

- وبعد ؟ أكملى الحلم .. حتى أحققه لك .

- لا أستطيع .

- أنهضت معك ؟ ..

- وأشارت برأسها :

- أجل .

- وأمسكت بيدك ؟ ..

ومددت يمينى فأمسكت بها كفها ، ثم عدت أتساءل :

- وضممتك بيدى ..

وأحطتها بذراعى الآخر فى رفق روجدتها تغمض عينيها
كالمستغرقة فى حلم ، وهى تشير برأسها إشارة خفيفة (أجل) .

وفى صمت وضعت شفتى على شفتيها فى مسة خفيفة وبدا لى
وجهها فى الظلام كأنه وجه قديسة . ومضت برهة قبل أن تفتح عينيها
المغرورتين وتهمس فى لهجة ذائبة :

- لست أدري كيف أشكرك .. ما ظننت أن حلمى سيحققه
الله بمثل هذه السرعة .

وافترقنا ليلتذاك ، وعدت وأنا محمل القلب بأجمل ما حمل قلب
بشر من حب .

واستمر الحب بيننا يزداد على مرّ الأيام .. حب حقيقي كاعنف
ما يكون الحب وأحرّ ما يكون الهمام ، وانكملت رسائل المعجبين بعد
أن تركز كل ردّي على رسالة واحدة .. حارة ملتهبة .

وقد يبدو الحب غير متكافئ الكفتين ، وقد يثير الدهشة
والعجب ألا يسقط ماهرة مخنكا خبيراً بالنساء مدرعا بتجاربه ضد فتتهن
سوى طفلة بريئة عاطلة من كل قدرة وخبرة .. ولكني أعتقد أن هذا
الشيء يجب ألا يبعث على الدهشة .. فلست أرى هناك مقاييس معينة
يمكن أن نخضع لها الحب .. بل يبدو لي أن المسألة على النقيض ،
وأن أخطر أنواع النساء ، وأشدهن تأثيراً على الكتاب والفنانين وأصحاب
التجارب هن أشدهن سذاجة وبراعة وبساطة .

على أية حال .. لست أجدها هناك ما يدعو للمناقشة ، أو التبرير
أو الاعتذار .. فالأمر قد وقع .. ولم يكن هناك مفر من التسليم بالواقع .
وبدأت أدير أمري وأنظم حياتي على أساس حالتي الجديدة .. حالة
إنسان محب جاد في حبه مخلص لمن يحب .

وبدأت بعد عمر طويل من العبث واللغو .. تصيبي حالة من
الزهد والقناعة .. وتساقطت الرفيقات من حولي كما تتساقط أوراق
الشجر .. واستطاعت الفتاة الصغيرة أن تدفع عني من الخطايا ما عجزت
عنه نذر السماوات وعظماة الرسل .

وبلغت بي الجدية في مشاعري إلى الحد الذي هانت علي فيه
حريتي .. ولم يعد الزواج في نظري مصاباً يتحتم تجنبه وبلية يجب
اتقاؤها ، بل وجدت نظرياتي في الزواج تنقلب رأساً على عقب وإذا
بتفكيري ينتهي إلى أنه خير وسيلة للاستقرار والطمأنينة .

و كنت أذهب للقاء فى كل فرصة تسنح لى .. صيفا وشتاء . ولم يتعد اللقاء بيننا صخرة الشاطئ أو ركننا فى أحد مقاهيه .. ولاتعددت علاقتنا .. مسة الشفاء .. التى حققت لها بها أول حلم .

وبدأنا نظرق حديث الزواج طرقا خفيفا ، وحاولت هى تجنبه فى أول الأمر ليقينها مما تعرفه عن آرائى وطريقة حياتى أنى أكرهه .. ولقناعتها بما كان بيننا .. وعدم محاولتها التطلع الى تجاوزه أو الطمع فى أكثر منه .

وزاد حديثنا عن الزواج والعائلة ، وربة البيت والأولاد فى لقائنا ورسائلنا ، حتى انتهى الأمر بيننا الى قبوله كفكرة ، ثم تأكيده وتحديده كأمر واجب منته .

ولم يد لنا اندفاعنا فى الحب .. اى نوع من انواع الموانع تقف امام رغبتنا فى الزواج .. لا ارادة اهل ، ولا فارق سن ، ولا شىء ابدا .. كل ذلك كان حصى صغيرا امام تيار حبنا .

وحملنى القطار اليها ذات ليلة .. بعد اتفاق على لقاء يتبعه تقدم لطلب يدها .. وجلست فى عربة القطار اضيع الوقت بمراجعة مقال وبضعة بروفات ثم اعدتها الى الحقيبة واخرجت بضعة الرسائل التى تسلمتها قبيل الرحيل ولم يسمح لى الوقت بفضها .

ولم اجد بالرسائل جديدا .. نفس الطلبات ونفس الأسئلة ونفس المشاكل .. حتى توقفت امام احداها ومررت بصرى بخفة على بضعة الأسطر الأولى .. ثم وجدتنى اتمهل وتمعت فى القراءة وقد تملكتنى الدهشة .

انى أذكر الرسالة كلمة .. كلمة .. لقد كانت كما يلي :

(لا أريد أن أثقل عليك بكلام كثير لا أجد فى النفس الصبر عليه ولا الجهد له . كان يجب أن أكتب اليك من قبل لامنحك من الاستمرار فى الطريق الذى انتهى بك الى ما وصلت اليه ، ولكن لم يخطر لى ببال أن العلاقة مستمرة ، وأن طريقا واحدا مازال يضمكما سويا ليؤدى بكما الى هذه النهاية المذهلة . كل ما رأيته هو رساله منك اليها تبينت منها أنها رد على احدى رسائلها ، وأحسست برجفة عندما قرأت امضاءك .. ولم املك أن أزجرها عنك ، وأمرها بالكف عما سميت عبث اطفال) .

(ما أحمقنى .. كان يجب أن أقول لك أولا من أنا .. ولكنى افترضت أنك تعرفنى كما أعرفك ، أنا الآن - ام كوثر - وأظن هذا تعريفا كافيا بالنسبة لك .. لانك لاشك تعرف كوثر جيدا .. تشهد على ذلك كومة رسائلك الملتهبة اليها) .

(أظن كوثر قد حدثتك عنى .. وأظنك قد كوّنت فى ذهنك صورة معينة لى .. وان كنت أعتقد أنه لايمكن أن تنطبق بحال على الصورة الواقعة لى .. والتي يمكن لو قلبت اليوم ذهنك أن تجد لها قابعة ضمن عشرات أو مئات القابعات فيه) .

(لست أدري ما اذا كنت أستطيع تذكيرك بنفسى .. وان كنت سأحاول .. فاذا فشلت فيجب عليك أن تأخذ كلامى قضية مسلما بها ، فأنا أذكرك جيدا ، لأنك تمثل لى خطيئة واحدة فى حياتى .. بينما أمثل فى حياتك واحدة من آلاف الخطايا .

(لقيتك أول وآخر مرة وأنا حديثة عهد بالزواج فى زيارة لى بالقاهرة . وكنت شديدة التأثر بك وبكتابك .. تأثرا قد يبلغ حد البولہ . ودعوتنى الى زيارتك لتناول الشاى .. ولم أستطيع رفض الدعوة .. وأنا أجد فى لقائى بك شبه معجزة .. وكأنت لم تنزل أمامى بضع ساعات على القطار .. وذهبت معك بعد أن دعنتا واسطة التعارف .

(وضمنا وایاک بیتك الساحر لبضع ساعات . لا أعتقد أنك تذكرها .. أو تذكرها كعينة لمئات الساعات المشابهة ، ومع ذلك فما زلت أذكرها أنا بعد كل السنين الطوال كأنها حدثت بالأمس ، أذكر أريكة الركن الخضراء المنخفضة واللهب المتراقص فى المدفأة والأشعة الهادئة المنبعثة من المصباح الأحمر والموسيقى الناعمة .. أذكر كل هذا جيدا ، وأذكر اللوحة فوق المدفأة وأذكرك ترنو الی فى لهفة وأذكر استسلامى بلا مقاومة .. وأذكر بعد هذا أمتع ساعات عمرى .

(وتركتك بغير ندم والى غير رجعة ، وأحسست أنى قد ذقت طعم شىء .. كان يتحتم على أن أذوقه ، واعتبرت المسألة تجربة أولى وأخيرة فى سبيل ما يسمونه بالخطيئة .

(ونسيت كل ما كان من أمرى معك .. وصددت نفسى عن القراءة لك خشية أن يدفعنى الحنين اليك مرة أخرى .. وأنجبت ابنتى الوحيدة .. ومرت بى السنون وأنا مثال للزوجة الصالحة والأم المثلى التى لم تشب حياتها شائبة .

(وعندما بدأت ابنتى القراءة لك لم أحاول أن أصدها فقد كنت أجذك - مع السنين التى كرت ، والبعد الذى طال - أنأى من أن تكون مصدر خطر حتى وجدت رسالتك اليها وعلمت أنها كتبت اليك فنهيتها عنك .

(ومرت الأيام .. وأنا آمنة مطمئنة .. لم يطف شبحك بذهنى مرة واحدة .. حتى وجدت بالأمس .. كومة رسائلك اليها .

(عجيب هذا الذى حدث ! كيف ! ومتى ؟ ! ولماذا ؟ ما الذى دفعك اليها ؟ وما الذى دفعها اليك ؟

(ولقد رأيت صورتك ، وقرأت رسائلك ، وعجيب فى نفسى كيف استطعت أن تحتفظ بإشراقة وجهك وفتوة روحك ، ونضارة قلبك .. ان السنين السبعة عشر لم تغير فيك كثيرا .

(وأدركت ببساطة كيف أحبتك .. ولم يصنع على بالطبع أن أدرك كيف أحبتها .

(ان المسألة فى نظرى لاغبار عليها لاسيما وقد كنت معها - على غير ما كنت مع أمها - مهذبا أمينا .. وقصدت وإياها الى الطريق الصواب وتعاهدتما على الزواج واتفقتما كما أرى فى آخر خطاب على أن تتقدم لطلب يدها .

(كل هذا معقول .. ولكن ثمة أمر بسيط أريد أن أنبهك اليه . أمر قد تكون خالى الذهن منه .

(لقد حملت فى كوثر فى الشهر الذى لقيتك فيه ، ولست أستطيع أن أجزم بالضبط من يكون أبوها أنت أم زوجى ؟ ولكن الشئ الواضح الذى أستطيع أن أجزم به .. هو أنى لم أحمل بعد هذا من أيها أبدا .

(أنا لا أستطيع أن أجزم بشئ .. وقد يكون أبوها هو فعلا أبوها .. وقد يكون أصيب بالعقم بعد ذلك .. أجل قد يكون ذلك ، وقد لا يكون .

(وانى لم أفكر فى المسألة سوى اليوم ، وكوم الرسائل أمامى
ومن ورائه شبحك يتقدم لطلب يدها .. والشك يكاد يقتلنى .

(لماذا ؟ من بين بقية بنات الأرض ، يقع اختيارك عليها ؟ ! .

(لقد عرضت عليك الأمر ، وسواء ذكرتنى أم وجدتنى ضائعة
فى غمار مغامراتك .. فتق أن ما قلت هو الحق .

(واذا استطعت بعد كل ما قلت أن تقاوم الشك فتقدم لطلب
يدها .. انى فى انتظارك .

وانقضت الصاعقة لتركبى خطاما عاجزا عن الحراك والتفكير ،
وأطبقت على رأسى بكتفى أمنعه من الانفجار والتطاير .. وأحسست
بصوت عجلات القطار المنتظمة كأنها مطارق تهوى على وأحسست
من تباطؤ سير القطار بأنه يوشك أن يصل الى المحطة .. وودت لو
استطعت أن أوقف القطار أو أعيده من حيث أتى .. ولكن أضواء المدينة
بدأت تتواتر مؤذنة بالوصول .

ووجدت نفسى قد جمدت فى مقعدى كأنى قد أعجزنى شلل ،
ومر الوقت بطيئا وأنا جاثم لا أتحرك حتى دق الجرس وعلا الصفير ،
وبدأت عجلات القطار تدور وأخذ القطار يتباعد فى ببطء .

وعلى ضوء أحد المصاييح لمحت وجهها يبحث فى لهفة بين
النوافذ وفجأة التقت عيناها بعينى وأنا متصلق بالمقعد فى جلستى الصامتة
العاجزة فهتفت باسمى فى صرخة مجنونة وانطلقت تعدو وراء القطار .

وأخذت أرقب شبحها يتضاءل وصرخاتها باسمى تخفت رويدا
رويدا حتى غلبتها ضجة القطار وابتلعها الظلمات .

وساد الصمت .. صمت أليم موجه .. ومد طرف لسانه يلحق
دمعة ساخنة مالحة .. انسابت حتى شفثيه .. ولم تستطع صاحبتة أن
تكبح جماح دمعها .. تركت ينساب في غزارة .

وكان هو أول من تملك نفسه .. ورفع اليها بصره وقال في
مرارة :

— ألم أقل لك .. ان الإيجار خير من الامتلاك .

★ ★ ★

لَيْلَتِي حُسْبَى

كان يكره نفسه !!
يكره منها ذلك الحذر والتردد والضعف ، والخوف كلما
أضحت محطاً للأنظار .
لم تكن القدرة هي التي تنقصه .. ولكنها كانت الثقة .. كانت
الجرأة والإقدام .

انه لم يكن عاجزاً ولا ضعيفاً .. وكان يملك الجهد والقدرة ،
ولكن هذه القدرة لم تكن تستطيع أن تتعدى النطاق الضيق الذي يقوم
فيه بالتدريب والمران حيث يشعر أنه ليس هناك من يرقبه ، وأن عمله
لا تتوقف عليه نتائج حاسمة أو كسب خطير مرتقب .

فاذا ما خرج من ذلك النطاق الضيق وأحس بالأنظار تتطلع إليه ..
وبأن على جهوده تتوقف نتائج خطيرة لنفسه أو لفريقه أو لمدرسته ..
طارت من نفسه الثقة .. وضاعت القدرة وبدد الجهد .. وتملكه
الاضطراب والخوف .. وتمنى لو استطاع الفرار من الميدان .

تلك كانت شيمته فى كل عمل يؤديه .. سواء أكان عمله ذهنيا أو جثمانيا .. وسواء أكان امتحانا دراحيا أو مباراة رياضية .

ما استطاعت نفسه أبدا أن تنصفه أمام الغير .. بل كانت تخذله فى كل مباراة وامتحان ومسابقة .

واتهمه رفاق الطفولة والصبا بالجبن .. واقتنع هو بتهمتهم .. ولم يكن يملك غير ذلك .. وكل الشواهد .. والظواهر تدل عليها وتؤكد وجودها .. وهو يشعر فى قرارة نفسه .. انه حقا يفتقد الثقة والجرأة والشجاعة والإقدام .

ودخل الكلية الحربية .

والكلية الحربية - لمن لايعرفها - أشبه بدوامه فى أيامها الأولى .. التى يطلقون عليها .. أيام المستجدين .. والطلبة فيها أشبه بكوم من القش تدور به الدوامه .. لايميز فيها واحد عن غيره .. ولايعرف فيها الطالب رأسه من قدمه ولا بداية يومه من نهايته .. بل تظل الدوامه تلف وكأنها تلعب به (دوخينى يالمونة) فلا تتركه عند نوبة نوم الا وقد أضحى جسدا هامدا لاتبعث فيه الحياة الا نوبة الصحيان .

وأضاعت رهبة الكلية ومشقتها والذعر الذى يشيعه صف الضباط فى نفوس المستجدين .. والبقية الباقية .. من الثقة التى كان يحتفظ بها لنفسه .. فى نطاقه الضيق .. عندما كان يشعر أنه وحده ليس هناك من يرقبه .. لأنه لم يشعر قط فى الكلية أنه وحده .. وأنه ليس هناك من يرقبه حتى فى ساعات النوم .

ووجد نفسه .. يتحرك فى دوامة الكلية ضالا فكرة مجهولا .. كأنه فرد فى قطيع متشابه لايميزه مخلوق ، ولايشعر به انسان .

حتى أحس ذات يوم بأنه ليس مجهولا تماما .. بل ان هناك -
لدهشته الشديدة - من يعرفه ويميزه .

لم يكن مخلوقا ذا بال .. ولا مكانة ولاحيثية ، ولكنه مع ذلك
سرّه أن يميزه .. والإنسان النكرة المجهول .. لا يدقق كثيرا .. فى حيثية
من يمنحه شرف التمييز بين القطيع المتشابه المجهول .

ومع ذلك فلم تدم فرحته بالتمييز طويلا .. عندما اتضح له أن
الرجل .. قد منح هذا الشرف جميع زملائه من الطلبة .. وأنه قد ميز
القطيع فردا .. فردا .

ولم يمنع ضياع فرحته بالتمييز .. وسخطه على الرجل الذى
أشرك الكل فى التمييز والمعرفة واعجابه المفرط بذكائه ودهشته الشديدة
من قوة ذاكرته .

كان معقولا أن يميز الرجل صف الضباط فهم قلة معروفة مسيطرة
مميزة .. وكان معقولا أيضا أن يعاونه بعض الذكاء المفترض - رغم
أميته وتقدم سنه - على معرفة طلبة القسم المتوسط فهم لايزيدون على
بضعة عشر طالبا وقد مضى عليه عام وهو يبيع لهم (الاسباتس والسيدر
وبقية أنواع الكازوزة) .

كل هذا كان معقولا .. أما أن يميز الرجل دفعة المستجدين
بأكملها وقد بلغت الخمسين .. ولم يمض عليها أكثر من شهر فى
المدرسة .. فقد كان أمرا بلاشك يستحق كل اعجاب وتقدير .

ولقد وضحت قدرة الليثى (اسم الرجل) لصاحبنا عندما اندفع اليه
أول مرة وقد استقر بصندوقه الملىء بمختلف أنواع الكازوزة تحت

السلم الحجري المفضى الى عتابر النوم يرجوه أن يحتفظ (بالبل) حتى يأخذه منه عقب انتهاء الحصة .

(والبل) لمن لا يعرفه من غير العسكريين ، هو مجموعتان من الأكياس المزورة توضع فيها الطلقات وتشدان الى الكتفين بحمالات والى الوسط بحزام ويلبسهما الطلبة فى طوابير التمرين على البندقية .

ولم يكن صاحبنا وحده الذى اندفع الى الليشى يرجوه الاحتفاظ بالبل ، فقد اندفع بعض أفراد الفرقة يرجونه نفس الرجاء اذ كانت الحصة تقع بين طابورين ، ولم يكن لدى الطلبة وقت للصعود الى العتابر لوضع البل والهبوط الى الفصل ، ثم الصعود لإحضارها مرة أخرى بعد الانتهاء من الحصة للبسها فى الطابور التالى ، اذ كان المفروض ألا يدخلوا الحصة بها ، وكان الزمن بين الحصص لا يكفى للصعود الى العتابر والهبوط منها .

وكان أكثر ما يقلق صاحبنا وهو جالس فى الحصة ، هو ما يخشاه من خلط البل .. ولكن لم تكد تنتهى الحصة ويذهب الى الرجل حتى وجده يسلم كل واحد بلة ، بابتسامة مرحبة وكأنه يعرف كلا منهم معرفة وثيقة .

وبدا له أن قدرة الرجل على تمييزهم سببها قلة عددهم ، وأنه استطاع ببعض التذكرة أن يعي صورة لكل منهم ويعرف أين وضع بله ، ولم يعجزه بعد ذلك أن يسلمه له .

ولكن الأمر تكرر بعد ذلك ، واستقرب الطلبة كشك الليشى انكائن أسفل السلم .. وازداد عدد الطلبة الذين يحتفظون بالبل عنده .. ومع ذلك فلم تخن الرجل ذاكرته .. بل كان يأخذ من كل منهم بله ،

بابتسامته المرحبة ، فاذا عاد لأخذه سلمه له بلا أدنى تشكك .. بل كان يبدو وكأنه يعرف كلا منهم معرفة وثيقة .

ومرت ايام المستجدين بصاحبنا وهو يعدو مع القطيع فى الدوامة .. نكرة مجهولا .. لا يميزه أحد .. ولا يحترمه مخلوق .. سوى عم الليشى .

حتى بدأ الخروج فى عطلات الخميس والجمعة ، فاذا به يجد نفسه مميزا ، ومعروفا .. بل وأكثر من هذا مما لا يجسر على تحديده بالضبط .. من مخلوق .. أجل وأخطر .. من الليشى .

كان مخلوقا ناعما رقيقا .. وعلاقته بالمخلوقات الناعمة الرقيقة .. كانت كلها فيما مضى .. علاقة من طرف واحد ، فما كانت خشيته ووجله وخوفه واضطرابه ، وحاجته الى الثقة والإقدام تهىء له أكثر من التطلع والتمنى والهيام المطوى فى الصدر والجوى الخبيء بين الضلوع .

وكان المخلوق الناعم الجديد الذى أحس به وميزه ، وربما أكثر من ذلك .. هى مديحة صغرى أختى رأفت أعز أصحابه فى الكلية .

رآها أول مرة فى دار صاحبه ، وقد دعاه ذات خميس لسماع أول اذاعة لأنشودة عبد الوهاب (كليوباترا) .

والصوت منبعث فى سكون الليل .. بشعره الرقيق ، ولحنه العذب ، والناعمة متكئة بذقتها على كفها ومرفقها على ساقها ، وقد مالت فى مقعدها الى الأمام مأخوذة بالإصغاء .. وقد انعكس ضوء المدفأة الأحمر المتراقص على جانب وجهها فبدا رقيقا رائعا بطرف أنفه الأشم وفمه الرقيق المضموم .

وهو موزع المشاعر بين اللحن المنبعث والوجه المصفى وكل ما حوله من تعاون على ارهاق حسه والهلب عواطفه والصوت يردد :

(يا حبيبى ! هذه ليلة حبى آه لو شاركتنى أفراح قلبى)

وتنهيدة رقيقة تنبعث من صدر الناعمة الحالمة المصغية النشوى .

ولم يكن هناك أعنف من هذا هجوما على قلب ، ولا أحر من ذلك دعوة الى حب .

وأحبها صاحبنا .. بكل ما يملك من عجز ونخشية وضياح للثقة .. وفقدان للجرأة والإقدام ، ومّرت أيامه حثيثات سراحا .. وهو مغرق فى حبه السلبي ، وعاطفته المستسلمة العاجزة .

وفى المدرسة بدأت طبيعة خلقه تظهر أشد ما تكون وضوحا وجلاء .. قدرة فى المران والتدريب .. وعجز فى المباريات والمسابقات .. قوة بينه وبين نفسه وضعف أمام المشاهدين ..

وفى كل مرة يحاول التماسك والتجلد والاحتفاظ بثقة فى نفسه وقوته وقدرته .. ولا يكاد يشعر بالأنظار تحيط به ، ويحس بأن عليه تتوقف نتيجة المباراة حتى تتسارع دقات قلبه ، وتتوتر أعصابه ويفقد كل سلطان على نفسه .. ولا يبقى منه الا انسان عاجز يكاد يخر جزعا واعياء .

وحلّ موعد الحفل العام الذى تقيمه المدرسة آخر السنة وكان أكثر ما يخشاه هو حضورها لمشاهدته .

وبدأ الحفل وهو يعلم أنها فيه .. ولكى لانظلمه نقر بأنه بذل أقصى ما يمكن أن يذله مخلوق للسيطرة على أعصابه والاحتفاظ بقدرته

وبثقته فى نفسه .. ولكنه رغم ذلك كان فى مباريات الحفل مثلاً للعجز والضعف .. حتى لقد كان فى معظمها السبب الأول لهزيمة فريقه .

وتسلل من الحفل وحيداً .. يائساً .. منهراً .. وقادته قدماء الى أسفل السلم الحجري .. الى كشك الليثى .

وتلقاه الرجل هاشاً مرحباً .. وقدم اليه زجاجة (سيدر) مثلجة يتصاعد من فوهتها الدخان ، ويعلو صدرها ندى الرطوبة .

وجلس يشرب فى صمت مطرقاً حزينا .. وحانت منه التفاته الى العجوز البادى الرضا والقرارة .. وطاف بذهنه أن يسأله سؤالاً طالما تاق الى الاستفسار عنه .. وهو كيف يحفظ الوجوه بمثل هذه السهولة .. وكيف يميزهم فرداً فرداً ، ويرد اليهم حوائجهم التى يحتفظ بها دون خلط ولا خطأ .

ورفع رأسه ووجه السؤال الى الرجل .

وابتسم الرجل .. ثم اتسعت ابتسامته حتى كشفت عن بضع أسنان معلقة فى لثته .. ثم انطلقت منه ضحكة طروب وأجاب :

- تريد أن تعرف حقاً ؟

- أجل .

- على أن تبقى سراً ؟

- أجل .. أجل .

- انى اميز كلا منكم بظاهرة فيه .. فى وجهه .. فى جسده .. فى صوته .. فى خلقه .. فى أى شىء مميز به .. وأسميه بهذه الظاهرة .. فهذا مثلاً ذو الأنف الكبير .. وهذا الطويل وآخر ذو

الرأسين .. وآخر الجعججاع .. وآخر الأخرس .. والحمار .. والعاقل ..
والأنيق .. والمفشكل .. والدَّهْل .. والحدق .. هذه كلها أسماء أميزكم
بها ولا أخطئها أبدا .. فاذا ما أعطاني أحد منكم إحدى حاجياته ..
دخلت لوضعها في الكشك وأرفقت بها ورقة صغيرة كتبت عليها الاسم
الذي أميزه به .. فاذا أتى لأخذها رددتها اليه بعد أن أمزق الورقة دون
أن يرانى .. وهكذا أبدو كأنتى أعرفكم جميعا .. وأرضى غروركم
جميعا .

ورغم ما كان بصاحبنا من حزن وضيق فقد أطربته اجابة
الرجل .. وكان السؤال الطبيعى الذى يجب أن يسأل بعد ذلك ..
والذى يرضى به نخب استطلاعهم هو (وأى ظاهرة ياترى سميتنى بها ؟ .
ولقد أوشك أن يسأله لولا أن أضاع الفرصة فوج من الطلبة ..
أقبل متدفقا على الكشك وحال بينه وبين السؤال .

ومرّت أيام آخر .. وتخرجت دفعته .. وهو هو .. لايتغير طبعه
ولا تبدل حاله .. حتى كلمة جب .. لم يجسر أن يقدم على قولها ..
لمن ولدت قلبه حبا .

ولقد فكر فى خطبتها .. ولاسيما بعد أن خطبت أختها الكبرى
وعقد قرانها ، ولكنه يتجاوز نطاق التفكير .. لعجزه عن أى عمل
ايجابى ، وفقدانه لكل قدرة على الإقدام على شىء ، وضياع الثقة من
نفسه .. وأكثر من هذا وذاك ، احساسه بأنها تعرف فيه ذلك العجز
والجين .. ألم يتأكد لها أمره من يوم الحفل ؟ أتراها تحتفظ له بعد
ذلك بأى احترام أو حب .

ورحل مع وحدته الى فلسطين ، ولم يكن فى قرارة نفسه يخشى الحرب فى حد ذاتها ، ولكن خوفه كان من نفسه .. كان يخشى أن تخذله ، كما سبق أن خذلته ، فى كل عمل أقدم عليه .

ومرت بضعة شهور وهو محتل بجنوده أحد المواقع ، دون أن تسنح فرصة الاختبار أعصابه ، وامتحان قدرة نفسه .

وفى ذات ليلة علم أن العدو قد نفذ من الخطوط وأنه قد احتل احدى التباب المشرفة على خطوط المواصلات وأنه يهدد بعزل كل المواقع .

وحلت اللحظة الرهيبة ، واستدعى لتلقى الأوامر لكى يسترد بجنوده الموقع الذى ملكه العدو .

واذا كانت أعصابه .. قد خائته فى ملعب كرة .. أو فى ساحة قفز .. أو فى حلقة ملاكمة .. فقد كان أولى بها أن تخونه فى ميدان قتال .. ولقد خائته فعلا .. فقد عاد الى مواقعه .. متوتر الأعصاب .. خافق القلب .. شارد الذهن .. ولم يكن هناك مفر من تنفيذ الأمر .. فان النكوص مستحيل .. ولم يسعه الا أن يلتم جنوده .. ويبدأ الهجوم .

وأجرى المراحل الأولى للهجوم .. بطريقة آلية .. وهو يشعر أن الذعر قد ملك عليه نفسه ، وأن زمام أعصابه يوشك أن يفلت منه .. وأنه لولا بقية من تماسك لأسرع بالفرار .

وبدأت المراحل الجدية للهجوم .

واستمرت قواته تتقدم ، وهو يسير مع الرئاسة فى المؤخرة ، وما زالت نفسه المنهارة ترتجف وتتنفض .

وانطلقت قذيفة من مواقع العدو .. فأطاحت ببضعة من جنوده
وأبصر بعينه أعضائهم تتناثر فى الهواء كأنها رشاش الماء .

وتوالى القذائف .. ودوت الانفجارات .

وأحس بالدم يجرى فى عروقه حارا .. وبمراجل الغضب
والانفعال تغلى فى صدره .

وفجأة .. شعر بأنه فقد نفسه .

أجل .. لقد فقدما تماما .. بذعرها وخوفها .. وتفكيرها ..
وخشيتها .. وانطلق وسط جنوده .. بلا وعى .

وهو لا يذكر جيدا ما حدث .. فقد كان حقا يتحرك بغير وعى ..
كل ما يذكره هو أنه استمر يندفع بجنوده حتى مواقع العدو .. ثم يذكر
صوت انفجار بجواره .. ضمن بقية الانفجارات التى كانت تدوى
حوله .

وقد عرف فيما بعد أنه أصيب بشظية أصابت ساعده ومزقت
كتفه .. ولكنه يؤكد تأكيدا جازما أنه لم يشعر بها ساعتذاك .. وأنه
لم يحس من أصابتها أى ألم .

ورحل فى قطار الجرحى الى مستشفى العجوزة .. وأدهشته أن
يسمع ممن حوله أنه قام بأحد أعمال البطولة الخارقة .. وأنه كان
شجاعا .

ولم يستطع بالطبع أن يكذبهم .

ماذا يقول لهم ؟ أيقول أن كل ما حدث هو أنه فقد نفسه ؟ .
أيقول لهم أن أعمال البطولة .. يقدم عليها الإنسان بلا شعور .. وأنه يفعلها لأنه يجد نفسه لا يستطيع أن يفعل سواها ؟

لا .. لا .. يجب أن لا يخذلهم ويحرم نفسه من التقدير والاعجاب اللذين طالما حرم منهما فيما مضى .

وخرج من المستشفى .. وكل ما يتوق اليه .. هو لقاءها .. كان يريد أن تراه كما يراه الناس .. فى صورته الجديدة .. كان يريد أن يزيل من نفسها الصورة الضعيفة .. العاجزة .. الخائرة .. والتي يتوهمها عالقة بنفسها .

انه بحالته الجديدة .. يستطيع أن يقدم على خطبتها وأن يوح لها بمشاعره .. وهو يجد فى نفسه الجرأة على ذلك .

وفى طريقه الى باب المستشفى التقى بأحد زملائه الذى أتى لزيارته ولم يكذ يراه خارجا حتى هتف به :

- حمدا لله على سلامتك .. ان رأفت (سيخبط مشوارا على الفاضى) .. لقد لقيته الآن .. فى شارع فؤاد .. وأنبأنى أنه سيزورك .. على أية حال سيسر كثيرا لخروجك اليوم .. لأنه كان يود أن تحضر الاحتفال بعقد قران شقيقته فى نادى الضباط .. لقد دعوا عبد الوهاب لإحياء الليلة ، وهو يعلم أنك تحبه .

ولم يسمع من كل ما قال صاحبه .. سوى جملة (عقد قران شقيقته) .. لقد كانت السهم الذى مرق فى صدره ، والأنفجار الذى دوى فى أذنيه .

أبعد كل هذا .. يفلت الطير ؟ يالها من سخرية !

وانطلقت العربة به تعدو على غير هدى .. وعندما عاد فى النهاية الى البيت .. أكدوا له وقع المصاب بقولهم : ان رأفت أتى لدعوته .. لحضور قران شقيقته .. فى نادى الضباط .

وأقبل الليل .. وبنفس يائسة منهارة ، وذهن شارد ذاهل .. ارتدى ملابس ليشتيع أمله .. الى مثواه الأخير .

واجتاز بعربته كوبرى أبو العلا ، وهو لا يكاد يبصر ما أمامه .. وانطلق فى شارع الزمالك ثم دلف من بوابة النادى ووضع العربة فى حشد العربات المصطفة .

وبدا النادى مضيئا متألعا ، ونغمات الموسيقى تتردد فى أنحاء الحديقة ، وأحس من كل تلك المظاهر امعانا فى السخرية .. ووجدوها تنعكس فى نفسه وكأنها النواح والعيول .

واجتاز مدخل النادى ، وعلى يسار المدخل أبصر الغرفة الصغيرة التى تحفظ فيها الكابات والعصى والمعاطف ، ومد يده فرفع الكاب من فوق رأسه وسلمها الى الحارس العجوز الواقف وراء الحاجز الخشبي ، ولم يتمالك نفسه من الدهشة عندما وجد الحارس هو نفسه الليثى بائع الكازوزة فى الكلية .

وسبقه العجوز الى التحية والترحيب ، وتسلم الكاب دون أن يعطه رقما يتعرف به عليها عند استردادها .. ولم يستطع هو أن يجزم بحقيقة ترحيب الرجل به .. اهو قد عرفه حقا وميزه .. منذ ان كان طالبا .. أما تراها مجرد مخادعة كعادته ، وأنه لا يلبث أن يكتب صفته المميزة .. ويضعها فى الكاب .

على أية حال لم يملك الا أن يبادل الرجل ترحيبا بترحيب ،
ووقف ينتصت مجاملا الى بعض أحاديثه عن أيام المدرسة ، واستطاع
الرجل ببشاشته وافراطه فى الترحيب أن يقنعه بأنه يذكره تماما .

وخطا الى الداخل وكان المكان يعج بمن فيه .. فتسلل بين
المدعوين واتخذ لنفسه ركنا قصيا .. وجلس يرقب المكان فى صمت
وشرود وبنفسه احساس من يجلس فى سرادق عزاء ينتظر خروج النعش
بين آونة وأخرى .

وفجأة بلغ مسامعه هتاف باسمه ، وأصابته من الصوت رجفة
شديدة .. فقد ميز فيه - على طول الفراق - صوتها .

وتلفت فاذا بها تقف بجواره ترنو اليه بنظرات ملؤها اللهفة
والشوق .

ونفض يحييها فى كلمات متحشجة وهو يشعر بغصة فى حلقه
ويسألها قائلا :

- كنت أظن أنى سألقاك فى ثوب العرس ؟

وأجابته فى دهشة :

- ثوب العرس .. لى أنا ؟

- أجل .. ألن يحتفل اليوم بعقد قرانك ؟

ولم تستطيع أن تكبت ضحكة انطلقت من شفتيها :

- .. قرانى أنا .. انه قران أختى سميحة .

- سميحة ! ولكنى أعلم أن قرانها قد عقد قبل أن أسافر فلسطين .

- لم تحدث قسمة فافترقا قبل الدخلة وقد خطبت ثانية واليوم عقد قرانها الثانى .

وأحس بأن الميت الذى أقبل لتشييع جنازته .. قد عاد الى الحياة .. وخيل اليه أنه يوشك من الفرحة .. أن يجن .

وسنحت الفرصة ثانية .. ولم يكن هناك سبيل للتردد والانتظار والخشية والرغبة .

وهمس بها وأنفاسه تتلاحق وكأنما يخشى أن تضيع الفرصة مرة أخرى :

- اسمعى يامديحة .. أريد أن أحدثك على حدة فى أمر هام يخص كلينا .

وتلفت حوله ثم جرّها من يدها قائلاً :

- ما رأيك فى جولة قصيرة بعربتى على النيل ؟

- الآن ؟

- أجل .. هيا بنا ننسحب دون أن يحس بنا .

وتسللا من الصالة المزدحمة ، وقبل أن يجتازا الباب مدّ يده فتناول الكاب من الليشى وهو يحس أنه يوشك من فرط السعادة أن يطير .

وشيعه الليشى كعادته بألفاظ الترحيب والمعرفة ، وبعد لحظة كانت العربّة تنطلق بالإثنين وقد سرى فى الجو صوت عذب يلاحقهما متباعدة خافتا رويدا :

(يا حبيبي هذه ليلة حبي آه لو شاركتني أفراح قلبي)
وفى الليل عاد الى بيته وهو يشعر بالسكينة تملأ قلبه والسعادة
تفعم روحه .

وقذف بالكاب على المقعد وخلع ملابسه ، وهو يدندن بأغنيته
المحبوبة .

وهمّ بإطفاء النور عندما أبصر فى الكاب ورقة .
يا للرجل المخادع .. انه مازال يتبع نفس الوسيلة .. ترى ماذا
كتب عنه ؟

لقد آن له أن يعرف صفته المميزة عند الرجل .

ومد أصابعه فالتقط الورقة وقرأ بها :

(الرجل الذى كان جباناً) .

وانطلقت منه ضحكة طروب وهتف لنفسه : الحمد لله على أنه
(كان) .

★ ★ ★

خَيْبٌ فِي الظِّلِّ

لم تكن مجنونة بمعنى الكلمة .. ولكن كان بها مظاهر شذوذ عجيبة ..
تكاد تجعلها في عداد المجانين لولا فرط رقتها وهذوئها وسكينتها .

لقيتها أول مرة في دارها خلال زيارة لها بقصد استئجار الدار
في الصيف ، وكانت تقطنها مع أب عجوز وهن العظم منه فهو لا يكاد
يغادر مقعده .

وأحببت الدار لقدمها وفساحة حديقتها وكثافة أشجارها اذ كانت
احدى الدور العتيقة الكبيرة الكائنة في رمل الاسكندرية بالقرب من
زيزينيا ، ولم يدع لى رخص ايجارها مجالا للتردد ، فسرعان ما
استأجرتها في فترة الصيف ونزلنا في الدار ، وانتقلت الابنة وأبوها الى
جناح أشبه بالسلامك قائم في أقصى الحديقة منفصل عن الدار ..
ومرت بنا الأيام ونحن نستمع بالدار والحديقة والشاطئ الى أقصى
حدود الاستمتاع حتى لانكاد نشعر بأصحاب الدار أو نبصر لهم وجها
الا في النادر القليل .. ولولا ذلك الطاهى العجوز الذى كنا نبصره حاملا

سلة الخضار فى ذهابه وأوبته لما أحسنا أن هناك أحياء يقطنون بجوارنا على قيد خطوات منا .

ولقد كان انطواء الأب العجوز فى داره وقبوعه فى عقرها أمرا لايشير دهشا ، فقد كان الرجل من فرط عجزه يكاد يكون مقعدا .. ولكن ما أثار عجبنا هو انطواء الابنة وامعائها فى التباعد والاختفاء .

وظننت بادىء الأمر أن انطواءها مرجعه الى انكبابها على العناية بأبيها ومداومتها على خدمته وقضاء حاجاته .. ولكنى وجدت هذا العذر - بفرض صحته - أمرا مبالغا فيه لأن الرجل لم يكن مريضا .. وكل ما به لم يكن يعدو عجز الشيخوخة .. وما كانت حالته بالتى تستدعى منها أن تهجر الدنيا والناس لتربط نفسها بجواره . وأكثر من هذا ، لقد تبين لى .. فى الأوقات المتباعدة التى ذهبت فيها لزيارة الرجل .. أن الابنة لم تكن ملازمة له .. ولا كانت منكبة على العناية بأمره .. بل انى لم أحس لها وجودا .. أو أرى لها أثرا .. وكان الطاهى 'عجوز .. وهو وحده القائم على خدمته المتولى أمره .

كانت الفتاة ولاشك مخلوقة شاذة .. نفورة .. مستوحشة .. ولكن شذوذها لم يكن يعنينا الا بقدر ذلك العطف الذى أثاره فى نفوسنا عليها .. فلقد كنا نراها فى مظهرها مخلوقة حلوة رقيقة .. لطيفة المعشر مستحبة الرفقة .

أقول ان شذوذها .. لم يكن يعنينا فى كثير ولا قليل ، اذ كان شذوذها سلبيا .. لا ضرر منه على أحد .. فقد كنا لانكاد نحس به ولا بها .. حتى حدث ذات ليلة .. وأنا أتقلب فى الفراش مستجلبا الكرى .. أن بلغ مسمعى صوت بكاء أشبه بالأنين .. يحمله نسيم الليل خافتا من الحديقة .

وأصابنى الصوت برجفة .. فهو بكاء مفاجيء فى وحشة الليل
وسكونه .. والبيت كما قلت عتيق فسيح .. والحديقة متكاثفة
الشجر .. شديدة الوحشة .. كل ذلك لايجعل النفس تتقبله بسهولة ..
وبغير فزع .

وعدت أنصت .. مرهف السمع .. حاد الأذنين .. ولكن
الصوت لم يتكرر .. حتى خلتنى واهما .. وخلته مواء قطعة .

وفى الليلة التالية .. سمعت الصوت .. ولم أكن وحدى الذى
سمعته .. بل سمعه نفر غيرى من الأهل الراقدين فى فراشهم .

وأقضى الصوت مضجعى .. فقد أحسست منه بخوف
مزدوج .. الأول خوفاً منه كشيء مفزع .. والثانى خوفاً من الأهل
الذين سبق أن اعترضوا على سكنتى فى مثل هذه الدار الفسيحة العتيقة
الموحشة .. والذين سبق أن توجسوا خيفة من رخص ايجارها ..
ولكنهم لم يملكوا سوى القبول أمام الحاحى .

وفى الليلة الثالثة لم آو الى فراشى .. فقد كرهت أن أسمع
الصوت راقدا مستسلما وصممت على أن أعرف مبعثه .

وهبطت الى الحديقة المتسعة المتكاثفة أجول خلالها . وحمل
الى النسيم رائحة أزهار الياسمين الهندى الذى تكاثف على أشجاره
المكدسة فى الحديقة .

ولم يكن القمر قد اكتمل وكانت الحديقة تسبح من ضوءه
الباهت فى شبه ضباب أغرقها فى غموض ووحشة وروعة .. وأحببت
الحديقة فى منظرها السحرى العجيب .. وأمعنت فى السير والتجوال
بلا رهبة ولا خشية .. حتى سمعت فجأة .. صوت النحيب .

ليالى ودموع أطياف

وفى هذه المرة .. كان جليا واضحا محددا .. لا لبس فيه
ولا غموض .

كيف لا .. وقد كان مبعثه على قيد خطوة منى .

وأصابتنى رجفة شديدة .. رغم انعدام عامل المفاجأة فى هذه
المرة .. (وعلام المفاجأة .. وأنا ما خرجت الا لأسمعه) ورغم أن
مصدره لم يكن مجهولا .. ولا غامضا لأنى لم أكد أسمع الصوت حتى
أبصرت مصدره . ومع ذلك فقد ارتجفت رجفة شديدة .. بل انى لا
أكاد أستعيد الموقف الى ذهنى لأكتبه .. حتى تصيبنى نفس الرجفة ..
وأنا جالس أكتب على مكتبى .. بلا ظلمة ولا وحشة .. ولا أنين
ولانحيب .

لقد أبصرت فى مصدر الصوت .. مخلوقا لفته الظلمة فجعلت
منه ما يشبه الشبح .. وكان يقبع على مقعد تحت احدى الخمائل وقد
انحنى ظهره واتكأ بمرفقيه على ركبتيه ودفن وجهه فى راحتيه . وأخذ
يهتز على نبرات النحيب .

أنا مخلوق عصى الدموع جاف المآقى .. لا تدر مقلتى عبراتها
بسهولة حتى وأنا واقف أرقب الموتى يهبطون بهم الى القبور .. ومع
ذلك لم أكد أبصر الجسد المهتز فى الظلمة ، وأميز صاحبه .. أو على
الأصح صاحبه .. حتى تجمعت الدموع فى مآقى .. وانسابت
برغمى .. وبرغم أنى لم أعرف علام تبكى المخلوقة الشاذة المنطوية
فى الظلمات .

لقد كنت اعطف دائما عليها .. وكنت فى قرارة نفسى أرجع
شذوذها الى شىء فى باطنها .. أو فى قلبها .. قد أغلقت عليه
صدرها .. وكبته فى حناياتها .

ووقفت برهة صامتا .. أفكر بسرعة فيما يجب أن أفعل .. ولم أجد خيرا من أن أنسحب فى هدوء .. دون أن أجعلها تشعر بى .. وبأنى أبصرتها وهى تبكى .

وهمت بالعودة ، ولكن قدمى ارتطمت بحصاة .. جعلتها تتلفت نحوى دهشة فزعة .

ولم أملك الا أن ألقى عليها التحية فى رقة وعطف .

ولم تجب لأول وهلة .. وبدت كأنها لاتميزنى ، وكان ذهنها لايعى شيئا مما حوله .. ووقفت أقرب وجهها فى الضوء الباهت وهو يحملق فى جزعا مرتابا .

وبدا وجهها عجيبا .. بخصلة الشعر المتهدلة على جبينها وأهدابها السوداء الطويلة وعينيها الخضراوين تبرقان من وراء الأهداب ، وأنفها الأشم المستقيم وشفتيها الرقيقتين .

ولم تطل الحملقة حتى أبصرتها تنهض نافرة فزعة وتشيح بوجهها ثم تولى هاربة منطلقة نحو الدار . ولم اكن أملك ازاء ادبارها وفرارها أن أقول شيئا أو أفعل شيئا ، رغم أنى كنت أود لو أستطيع محادثتها والترفيه عن نفسها وإزاحة بعض أحزانها . ولما همت بالعودة أبصرت على المقعد الذى كانت تجلس عليه حقيبة يد جلدية صغيرة مفتوحة وبجوارها قد تناثرت بضعة أشياء لم أستطع تمييزها لأول وهلة .

وترددت برهة فيما أفعله بالحقيبة والحاجيات .. أأتركها على حالها حتى تعود لأخذها .. أم أحملها وأذهب بها إليها ؟

وخشيت ان أنا تركتها أن تعث بها يدا قبل أن تعود لأخذها ، فصممت على أن أجمعها فى الحقيبة وأسلمها لها . ومددت يدي أجمع

الأشياء من فوق المقعد فأدهشني أن أجدها خليطا عجيبا متناقضا لا يكاد يربطها رابط .

كان أول ما عثرت عليه منديل وفرشاة أسنان ، ثم قطعة قديمة من الشيكولاته ملفوفة في ورقة بيضاء .. وقلم رخيص من الحبر الجاف ، وظرف صغير به بعض زهور البنفسج الجافة ، وماكينة للحلاقة ، وجلدة ساعة قديمة بالية ، واطار نظارة بلا زجاج ، ومنديل مستعمل لم تمتد اليه يد النظافة . وبجوار كل هذا مظروف به أوراق مطوية .

ووضعت المجموعة العجيبة المتناقضة في الحقيبة وسرت الى بيت الفتاة .. ولكنى وجدته مغلق الأبواب والنوافذ ولم أجد به أثرا لضوء .

ولم أجد من الحكمة أن أطرق الباب وأثير ضجة في الليل وصممت على أن أعود بالحقيبة اليها في الصباح الباكر .

وقبل أن يستيقظ مخلوق في الدار كنت قد ارتديت ملابسى وحملت الحقيبة وسرت في الحديقة متجها الى بيت الفتاة ، ولكنى لم أكد أبلغه حتى أبصرتها تنطلق في عجلة تجاه الخميلة .

وصحت بها فتلفتت الى .. ولوّحت بيدي بالحقيبة فاندفعت نحوى وجذبت الحقيبة في لهفة كأنها قد استردت حياتها .

وقالت وهى تلهث :

- حمدا لله .. لقد كنت أخشى عليها من الضياع .

وأجبت مازحا :

- كان يجب ألا تخشى شيئاً من ذلك .. فليس بالحقيقية شيء
ثمين يغرى بسرقتها .. فلا أظن محتوياتها بما فى ذلك قطعة الشيكولاته
القديمة وفرشة الأستان يزيد على نصف ريال .

ونظرت الّتي نظرة طويلة ثم انطلقت منها ضحكة قصيرة ساخرة
خافتة وأجابت :

- ان ما بها لا يقدر بثمن .. انها روحى .. أنها كل شيء فى
حياتى .

وهزرت رأسى فى عجب ثم هممت بالعودة عندما صاحت بى
فجأة :

- هل قرأت الخطاب ؟

- لم أقرأ شيئاً .. لقد جمعت بالحقيقية كل ما كان على المقعد
وأغلقتها .. وأعدتها اليك كما هى .. ولكنى أتمنى الآن لو استطعت
قراءته .

- لم ؟

- لأنى أود أن أعرف عنك شيئاً .. أود أن أعرف ما بك ..
لعلى أستطيع أن أحمل عنك بعض حزنك .. لابد للإنسان من انسان
آخر يتحدث معه ويفضى اليه بهوممه .. ليس هناك أقتل للمرء من ذلك
الانطواء وتلك الوحدة .. قد تكونين لم تجدى من يفهمك لكى تحدثيه
عن نفسك ولكنى واثق من أنى أستطيع فهمك وتقدير مشاعرك ..
حدثينى عما بك ولا تخشى شيئاً .

وأطرقت الفتاة برأسها برهة ثم جذبتني نحو الخميلة .. ودون أن تنبس ببنت شفة مدت يدها الى الحقيقية فاخرجت الظرف الذى يحوى الرسالة ثم دفعتها الى قائلة : اقرأ .

وأمسكت بالرسالة وفضضتها وقرأت ما يلى :

(عزيزتى ..

من يصدق أنى قد بت أغار من نفسى ؟

من يصدق أنى بت أكره ذلك الشئ فى نفسى الذى طالما تمنيته وتقت اليه .. والذى كنت أهدف الى الوصول اليه لأجعل منه مثلى الأعلى ؟

من يصدق أنى بت أكره فى نفسى الكاتب العبقري النابغة .. الذى يقدره الناس وييجلونه ويعجبون به ؟

انى أغار منه وأبغضه .. لأنك تحبينه ولا تحبيننى أنا .
لا تقولى انى وهو واحد .. وانى أنا هو ، هو أنا .. لأنى واثق لك تحبينه هو .

كيف لا وقد أحبيتك وحاولت التقرب اليك .. كأنا ، بشخصى لكائن الحي .. المتحرك المنظور الملموس بلا نبوغ ولا عبقرية ، ولا كتابة ولا تأليف .. ولا وهم ولا خيال .. فلم تعيرينى أدنى التفات .. وأعرضت عنى اعراض المهمل المنكر .

(أنا) لم أفز منك بغير الأهمال والإعراض .

فماذا فعلت عندما قرأت لى .. وعرفت أننى كاتب كتيب وصاحب آرائى .. لقد أقبلت على فى لهفة وشوق .. وانقلب أعراضك اقبالا .. واهمالك اهتماما ما بعده اهتمام .

وفاز منك (الكاتب) فى شخصى بما لم أفر به أنا .. وبت
تقدسنى وتلهفين على .

وكان يجب على أن أرضى بإقبالك ، وأن أستغل لهفتك على
(الكاتب) فى نفسى فأتمتع (أنا) بها ، ولكننى وجدتني أكره اعجابك
بكتابتى .. أكره قولك لى : (ان كتابتك رائعة) .. (انى أعبد كتابتك) ..
كرهت قولك هذا لأننى تمنيت أن يكون (انك رائع) .. (انى أعبدك) .
كرهت قولك لى .. (لا تكف عن الكتابة أرجوك . انى أريد
كتبك دائما ، أكتب .. أكتب .. انى لا أتصور كيف أستطيع أن أعيش
لحظة بغير القراءة لك) .

وكنت أود لو قلت لى : (انى أريدك دائما .. ابق معى لأنى لا
أتصور كيف أستطيع أن أعيش لحظة بغير لقائك) .

كنت أتمنى أن تحببى أنا .. كآدمى بسيط .. بتفاهاتى ..
وسخافتى .. وماديأتى .. بدل أن تحبى فى ذلك الوهم من النبوغ
والعبقريه .. والسمو .. كنت أود أن تحببى كما أحبتك .. وكما
يحب كل انسان انسانا آخر .

كنت أود أن تلهفى على ضمى كما أتلهف على ضمك .. وأن
تتوقى الى تقبيلى كما أتوق الى تقبيلك .. بدل هذا التلهف منك على
كتابتى وآرائى وأفكارى .

انى بشر أولا .. ولقد وددت أن تحببى كثيرا .

وحاولت التقرب اليك كبشر .. ولكنك صممت على مبدئك ..
وعلى أن تسمى - كما قلت - بنفسينا .. وأن يظل كل ما بيننا صلة
روحية ذهنية .

فلما أصررت على مطلبى وعلى طريقتى فى حبى هجرتينى .
ونأيت عنى .. وأرسلت الّى تودعيننى قائلة :

- أكتب .. أكتب .. ان فى كتابتك عزائى .. وثق أنك فى
ذهنى دائما سأقدسك مادامت بى قدرة على التقديس .

وحاولت عبثا أن ألقاك .. حتى يئست .. واستقر بى المقام بعد
هجرتك .. وأنا محطم منهار ولم يك أمامى سوى شىء واحد .. هو
أنى أنفذ مطلبك .. فأكتب .. وأكتب ..

وأقبلت على الكتابة باندفاع المجنون .. لقد كنت أحس أن فى
كل كلمة أكتبها وكل سطر أخطه متعة لك .. وكتبت الكتاب تلو
الكتاب .. واندفعت أرقى سلم المجد - دون قصد منى - بخطى
حيثيات سراع .. حتى أحسست أنى قد استنفذت كل قواى .. وأنى
بلغت قمة المجد .. ونهاية العمر .

انى متعب منهك .. ولقد أمرنى الأطباء بأن أكف عن الكتابة ..
ولكنى لن أكف - من أجلك - حتى أكف عن الحياة .

لن أكف حتى أكتب قصتى الأخيرة ، فانى أكتبها لك وحدك ..
ولا بد أن أتمها .. لقد انتهيت منها أخيرا وأنا أشعر أنى بت من النهاية
قاب قوسين أو أدنى .

وليس أمامى سوى أن أكتب لك هذه الرسالة لأودعك فيها ..
ولأقول لك : انى كتبت وكتبت لا لمال .. ولا لشهرة ولا .. ولا ..
ولكن لأجلك أنت .. أنت وحدك .. عابدة كتابتى .. ومقدسة نبوغى
وعبقريتى .

ليتك تحبين فى الإنسان المتواضع .. الطيب الهادىء . كما
أحببت الكاتب النابغة العبرى .. ليتك تحبينى .. مرة واحدة ..
كبشر .

ليتك تحبينى (أنا) . (المخلص)

ووضعت الرسالة جانبا ونظرت الى الفتاة فى دهشة بالغة ..

- وهل ذهب حقا ؟

- أجل لقد ذهب .. ليته كان يعرف .. ليته كان يعرف أننى
أحبته كبشر .. أكثر مائة مرة منه ككاتب .. لقد كنت أتوق الى ضمه
وتقبيله والى أن أتحمس شعره بيدى .. ولكنى كنت أجد حبه كبشر ..
حبا يائسا لا أمل فيه لأننى كنت مقيدة الى مخلوق آخر .. ولم تكن
هناك فرصة للفكاك . كنت احبه كبشر .. ولكنى لم أجد هناك فائدة
من حبه .. فصممت على أن أحبه ككاتب .. فقد خيل لى أن هذا شىء
مستطاع يمكن أن يدوم العمر .. وصممت على أن أجعل الصلة بيننا
صلة روحية ذهنية ما دامت الصلة الجسدية قد استعصت وتعذرت ..
وقلت لنفسى انها ستكون صلة أبقى على الزمن وأكثر دواما .

ونأيت بنفسى عنه .. وظللت اتعزى عنه بكتبه وأحيا معه نين
السطور والكلمات .. فى دنيا من الوهم .. وعالم من الخيال .. حتى
قرأت قصته الأخيرة .. التى أفنى فيها نفسه .. ثم وصلتني رسالته ..
وعلمت بعد هذا أنه ذهب .

وهنا أحسست أن صبرى قد عيل واحتمالى قد نفذ .. وأنه لم
يعد فى طاقى الاحتمال .. ولا فى استطاعتى أن أحيا كبشر مع رجل
غيره .

أجل .. اننى لم أحس بحاجتى اليه .. كبشر ، ألا بعد أن ذهب .
وانطويت على نفسى .. متلمسة العزاء عنه .. فى بقاياها التافهة .. فيما
كان يسميه ماديّات بشرية .. انه لم يعد يمتعنى فى الحياة شىء .. أكثر
من أن أتلّمس فرشاة أسنانه .. أو أتحمس جلدة ساعته .. أو أمسك
بقطعة من الشيكولاته كان قد قضم منها بعضها وأعطانى النصف الآخر
فاحتفظت به .

لقد حرمت على نفسى أن أحيأ معه .. وكنت أقنعها بالصلة
الروحية .. عندما كان حيا .. يلمس .. ويضم .. فلما ذهب ..
أحسست بعمرى قد ذهب هباء .. وضاع سدى .. ولم أعد أستطيع
أن أحرّم نفسى من أن أضم كل ما مسته يده أو لفحته أنفاسه .

★ ★ ★

سُورَةُ الدِّيلِ

هذه قصة مزحة لم تعد في أول أمرها أن تكون أكذوبة قصد بها التفكه والتندر .. ولكن الظروف دفعتها أمامها ونفخت فيها فانتفخت وتضخمت وظلت تتسلل بها الحوادث حتى انتهى بها الأمر فصارت قصة هي أبعد ما تكون عن أذهان أصحاب المزحة .. عندما اختلقوها في بادئ الأمر .

رأيت الفتى - بطل المزحة أو بطل القصة - أول مرة في ذلك النادي الذي اعتدت أن أقضى به سويعات مرحة ضاحكة مع بعض الأصدقاء حيث أنقل البصر بين وجوه الحسان اللاتي تناثرن هنا وهناك .. وكان يجلس في ركن من أركان الصالة الفسيحة المزدهمة وقد دفن رأسه في كتاب بيده لا يحول عنه بصره .

وكان الفتى أقرب الى الدمامة .. بوجهه الأصفر النحيل وأنفه الحاد الشبيه بمنقار البجعة ، وبذلك وبذلك الأسنان الصفراء البارزة المدببة . وذلك المنظار السميكة الذي يكاد يلمس صفحات الكتاب الذي في يده .. وتعودت أن أراه بعد ذلك في نفس المكان وفي نفس

الوضع لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا ينطق بحرف .. ولا يرفع رأسه عن صفحات الكتاب .. وكنت أحس له في نفسى شيئا من النفور .. وأغلب ظنى أن هذا هو الشعور الذى كان فى نفس كل من يراه .. ولكن حدث ذات يوم أننى وجدت نفسى مضطرا الى الجلوس اليه ومحادثته .. فقد كانت القاعة خلوا الا منه ومنى .. ووجدته يتسم لى ابتسامة خفيفة فاضطرت الى مجاذبته أطراف الحديث .. وأعجبني حديث الفتى ، فقد كان به رقة وطلاوة ، وكان صوته ذا رنة محبة يبنى ويينه .. والواقع أن الفتى كان يختلف عن مظهره كل الاختلاف .. فقد كان رقيقا شاعرى النفس ، حلو الحديث ، وان كان أكثر ما يعينه هو فرط حيائه لا تكاد تتعدى تلك الصفحات من مئات الكتب التى يغرق فيها رأسه .

وبدأ أصدقائى الخبثاء يتخذون من الفتى ملهاة لهم ، ومسلاة يتندرون به فيما بينهم .. وانتهى بهم الأمر أن يدبروا مؤامراتهم الماجنة .. والتى لم أعلم بحقيقتها الا فيما بعد .. والا لوضعت حدا لمزحتهم الشائكة وخاصة مع مثل هذا الفتى الحى .. والذى ما أظنه قد جلس فى حياته الى امرأة قط .. أراد الأشقياء أن يعيثوا بالفتى فاتفقوا مع فتاة من صديقاتهم أن تكتب له خطاب غرام تصف فيه مبلغ اعجابها به ولهفتها عليه .. وتقول (أن حبها قد بدأ منذ رآته جالسا فى صمته ووجدته بعيدا عن الناس ولهوهم ، ومجونهم .. وأنها لم تتمالك نفسها من الإعجاب بسيماء النبيل البادية عليه) ! ثم ينتهى الخطاب بتحديد لقاء فى الساعة الثامنة من مساء يوم الجمعة فى ملتقى العشاق باحدى الضواحي النائية .. ثم تضيف الى ذلك ملحوظة جاء فيها : (يمكنك

معرفتي بعيني السوداوين الحزینتین وبمعطفی الأحمر ووردة بیضاء
سأمسك بها فی یدی) .

ویستطیع المرء أن یدرك وقع مثل هذا الخطاب فی نفس الفتی
الذی یدوب نحجلا وحياء .. والذی ما خطر له أن فتاة یمكن أن
تعشقه ، بل الذی لا یدكر أن فتاة نظرت الیه نظرتین متتالیتین .

ویمسك الفتی بالخطاب ویخلع منظاره لیمسحه جیدا .. ثم
یاخذ فی تلاوته مثنی وثلاث ورباع ، والأشقیاء علی مقربة منه یسترقون
النظر الیه ویضعون أكفهم علی أفواههم خشية أن تفلت منها الضحكات
التي تعتمل فی صدورهم ! ثم یطبق الفتی الخطاب فی رفق وعناية
ویضعه فی جیبه ثم یروح فی شبه ذهول .. ولاشك أن الفتی قد قضی
یومه قلقا حائرا فقد لقیتة وفی عینیه نظرات غریبة ثم انتحى ناحية بعيدة ،
ودفع الی بالخطاب ووجهه یصطبغ بلون الأرجوان .. وطلب منی قراءته
ثم راح یرمقنی فی صمت فلما انتهیت من قراءته سألنی فی صوت
نحجول :

- یخیل الی أنى أعرفها .. وأحس بلهفة الی الذهاب للقاءها ..
ولكنی لا أجد فی نفسی الجرأة الكافية .

فقلت :

- الأمر لا یحتاج الی جرأة أو شجاعة .. فكل ما بنفسك من
حياء سیدوب بمجرد لقائك ایاها .

ولم أكن أعلم وقتئذ أن فی الأمر مزحة مدبرة .. والا لأجبتة بغير
ذلك .. ولاطلعتة علی الحقیقة حتی لا أتركه ألعوبة بین أیدی هؤلاء

الماجنين العابثين .. ولكننى كنت أظن مثله أن الأمر لا يعدو الحقيقة فقد كان الخطاب مكتوبا بأسلوب متزن معقول لا يكاد يميز المرء فيه هزلا أو مزاحا حتى جاء يوم الجمعة .. فعلمت من أحد الأشقياء الذين دبروا المؤامرة أن الخطاب أكذوبة أريد بها السخرية من الفتى وإخراجه من صمته ووقاره .

وشعرت بالأسى يتملكنى فأسرعت الى داره لأنبئه بحقيقة الأمر .. ولكن ما أن وقع بصرى عليه حتى وجدته قد تأنق وتزين والعطر يفوح منه ورأيت وردة حمراء تتربع على صدره .. ولمست الأمل يترقوق فى وجهه .. كل ذلك جعلنى أجزع من ذكر الحقيقة التى ستهدم تلك القصور الشامخة التى شادها الفتى فى رأسه فألقيت اليه ببضع كلمات تافهة وغادرته بعد ان وعده بالعودة اليه بعد أن ينتهى من مواعده .

وعدت اليه فى العاشرة .. فقد أحسست أن من واجبى أن أرفه عنه وأن أزيل ما علق بنفسه من آثار خيبة الأمل .. فقد تخيلته يحملق بمنظاره ومنقاره فى كل امرأة تمر به دون أن تعيره احداهن أدنى التفاتة .. ولم يعد الفتى الى داره حتى الحادية عشرة ، عندما رأيته قد أقبل حزينا ملتاغا وقد بدا عليه الإعياء .. فألقى بنفسه على مقعد وقال كمن يحدث نفسه :

-- انها لم تأت بعد .

- ربما قد عاقها مرض .. أو حدث لها طارىء منعها من الحضور .

ولم أدر أى شيطان دفعنى الى أن أجيبه هذه الإجابة التى أعادت
الأمل الى نفسه .. وجعلته يتعلق مرة أخرى بخيوط الوهم .. فقد
أجاب :

- نعم .. لا بد أن يكون هناك ما منعها .. ولا بد أنها ستكتب
الى مرة أخرى لتشرح ما حدث .. كم أخشى أن يكون قد مسها مكروه
أو أصابها سوء .

فلاشك أنها كانت تنوى الحضور والا لما كتبت تقول ذلك .
وفى الواقع .. كان يجب على أن أفضى اليه بالحقيقة كلها فى
ذلك الوقت ، ولكنى لم أجد فى نفسى الشجاعة الكافية لذلك ، ولم
أرد أن أحمل الفتى خيبة فوق خيبة .. وفضلت أن أترك للظروف تدبير
أمره وللزمن أن يبرئه مما به ، وينسيه ذلك الخطاب وصاحبه .

ولشد ما أخطأت فى ظنى .. فلم تزد الأيام الفتى الا استعارا ..
لقد استمر يذهب كل مساء فى الموعد المضروب الى مكان اللقاء فلا
يعود الا فى منتصف الليل .

وكان على أن أفعل شيئا وقد أوшك الفتى على الجنون ، ورأيت
من العبث أن أخبره أن المسألة كلها هزل فى هزل ، فقد كان من العسير
على المرء أن ينتزع الفتاة الوهمية من رأس الفتى وأن يقنعه أنها كائن
لا وجود له الا فى مخيلته وفى سطور الخطاب الذى خدع به .. وعلى
ذلك فلم يكن أمامى الا حل واحد ، وهو أن أوجد له الفتاة فعلا ..
وأن أحولها من الوهم لتكون حقيقة ثابتة .. فأجعلها تلقاه حتى يهدأ
بale وتطمئن نفسه .. ثم تحاول هى بعد ذلك التخلص منه بحكمه
ومهارة .. وكان خير من أستعين به فى هذه المشكلة صديق اشتهر

بوسامته وكثرة صديقاته ، ولا تكاد تخلو مائدته من عشرات الفاتنات الساحرات بين الككوس والضحكات .. فذهبت اليه وقصصت عليه القصة ، وسألته لو أمكن أن يتفق مع احدى صاحباته على أن تلقى الفتى مرة أو مرتين فتتلف مع بعض الشيء ثم تفهمه أنها لن تستطيع لقاءه بعد ذلك لأنها سترحل بعيدا لعذر تتحله .. وأخبرته أن من الخير ألا تكون الفتاة مفرطة في الحسن حتى يسهل على الفتى أن ينساها بعد ذلك .

وفي اليوم التالي أخبرني صاحبي أنه استطاع أن يقنع احدها بلقاء الفتى وهى - وان كانت بارعة الحسن - الا أنها أيضا خبيرة بالنفوس داهية مأكرة ، تستطيع أن تعيد الفتى الى نفسه من اللقاء الأول وتجعله يندم على لقائها وعلى التفكير فيها .

★ ★ ★

. وكنت جالسا مع الفتى عندما جاء الخطاب الثانى .. وأبصرت به يفضه بيد ترتجف ويبدأ قراءته وقد تصاعد الدم الى وجهه .. ثم رأيت يمد يده الى الخطاب ويقول فى صوت هامس :

- ألم أخبرك أنها لابد أن تكون مريضة ؟

وأمسكت بالخطاب ، ولم يكن بى من حاجة الى قرائته فقد كنت أعلم ما به .

ولكنى تظاهرت بالقراءة .. لقد كان بالخطاب اعتذار بالمرض وموعد للقاء فى نفس المكان وفى نفس الساعة .. وذهب الفتى للموعد وانتظرت أن يؤوب سريعا ، ولكن غيبته طالت حتى خشيت أن يكون

قد مسه سوء أو يكون قد ألقى بنفسه فى النهر ومات متحررا .. ولقيته فى اليوم التالى فأقبل علىّ باسمها متهللا .. وبدأ يحدثنى عن لقاء الأمس فوصف لى كيف أقبلت عليه الفتاة بقامتها الفارغة ومعطفها الأحمر ووردتها البيضاء .. تماما كما حدثته فى خطابها لاتكاد تختلف فى شيء سوى أن عينيها السوداوين لم تكونا حزينتين بل كانتا تبرقان بالمرح وتشعان بالسرور .

- انها نشوة أثارته فى نفسى .. ما ظننت قبل أن أراها أن من الممكن لإنسان على هذه الأرض الشقية أن يسعد مثلما سعدت .. لقد أقبلت علىّ هاشة باشة كأن بيننا قديم صحبة .. والواقع أننى أحسست أن روحينا قد التقينا قبل الأمس مئات المرات ! وأمسكت بيدها وانتحينا ناحية هادئة على الشاطئ وطلبت منى الفتاة أن أحدثها عن نفسى ، فرأيت لسانى ينطلق فى الحديث ويروى لها كل ماوعته الذاكرة من الشعر والقصص فأطربها الحديث ، ورحنا نحن الاثنين فى نشوة .. وأنا أحدثها بلسانى وهى تجيب بعينيها .

وصمت الفتى برهة ثم عاود الحديث :

- سنلتقى اليوم مرة أخرى .. وقد تركت لى عنوانها حتى أستطيع الاتصال بها اذا ألمّ بها سوء .

ويستطيع المرء أن يتصوّر مدى ما أصابنى من الدهشة والذهول عندما سمعت حديث الفتى .. وشعرت أن المشكلة تزداد تعقدا وأن الفتاة الحمقاء قد ذهبت لتزيد الفتى لهيبا بدلا من أن تطفىء لهيبه ! ترى كيف تستطيع أن تخلص نفسها منه بعد ذلك ؟ .. وذهبت الى صاحب الفتاة وأنا حائق ثائر .. فلقينى بابتسامة ساخرة وقال :

- أهذا هو صاحبك الذى تخشى عليه ؟ كان خيرا لك أن تخشى منه لا عليه .. اياك أن تعود لاقتراض صاحباتى لأصدقائك فانهم محتالون لا يردون القرض .

وتملكتنى الدهشة عندما سمعت أن الفتاة التى ذهبت لتمثل دورها القصير لم تجد الفتى قبيحا كما تخيلته بل وجدته رقيقا مهذبا ، واستطاع أن يأسرها بسحر حديثه وعذب صوته .. حتى لقد أقسمت أنها تستطيع أن تستمع اليه طول العمر دون أن يدركها ملل أو سأم .

ومرت الأيام فاذا بالمزحة قد انقلبت فصارت غراما فياضا وهوى جارفا ، وكاد الأمر ينتهى بها فتصبح زواجا سعيدا لولا أن حدث ما لم أكن أتوقع حدوثه قط .

فى ذات يوم جلس الفتى يتحدث مع أحد الأصدقاء الذين دبروا المزحة فى أول الأمر . ولا أدري أى شيطان دفع الخبيث الى أن يفضى الى الفتى بقصة الخطاب من أولها الى آخرها .. وأصيب الفتى بصدمة أخرى عنيفة قاسية أفقدته رشده .. فقد رأى أنه لا يعدو أن يكون فى كل هذه الأحلام العذبة العوبة وسخرية .. وسحق قلبه أن يكون كل ذلك الهوى الجارف من الفتاة محض تمثيل هازل ماجن .

ولقيني الفتى بوجه متجهم عابث ، وهيكل محطم مهدم ، اعترفت له بكل ما حدث .. ولكنى أخبرته أن شيئا واحدا مما حدث لم يكن به أى هزل أو مجون ، وذلك هو حب الفتاة . وحاولت أن أفهمه حقيقة ما حدث ، ولكنه أشاح عنى بوجهه وانصرف كأنه شبح أو خيال ، وشعرت أن رأسى يكاد أن ينفجر .. ونخشيت على الفتى أن يودى به وهم كاذب .. ولم أجد خيرا من أن أسرع الى الفتاة فأنبئها

بما حدث حتى تسرع اليه فتقنعه بأن حبها له حقيقة لا خداع .. ولقيت الفتاة وهرعت واياها الى دار الفتى واقتحمنا حجرته لننقذه من شر أوهامه .. ولكننا وجدنا أننا قد تأخرنا قليلا .. فقد أنقذ الفتى نفسه بنفسه .. لقد انتحر المسكين ، وتركت الفتاة ترتدى باكية أمام الفتى المسجى على فراشه وغادرت الدار .. فقد أحسست أنني أوشك على الاختناق .

يا للسخرية ! هذا الفتى الذى كنت أعالجه بالوهم الكاذب قد مات بوهم كاذب .

ترى لو كان يعرف صاحب المزحة أن مزحته تنتهى بمثل ما انتهت اليه .. أما كان يشفق على الفتى منها ويكفى الناس شر المزاح ؟

★ ★ ★

لَيْلَةُ السَّائِرِ

سار المحراث يشق الأرض يقلب عاليها أسفلها. وأسفلها عاليها وقد دفن
حدّه اللامع فى باطنها . وتحركت البهيمتان يتبعهما جسد طويل
متين البنيان ، وقد أمسك بيساره خشبة المحراث ، ويمناه عصا طويلة
يستحث بها البهيمتين كلما بدا منهما تكاسل أو تراخ .

كان ذلك فى احدى القرى القريبة من القاهرة ، وكان الجو قد
شملة ضباب ثقيل لم تستطع شمس الصباح بأشعتها الواهنة الرقيقة أن
تبدده أو تنفذ خلاله ، فبدت ذراتها البيضاء معلقة فى الجو ساكنة راكدة
لايكاد المرء يتشاءب ويتنفس حتى يتصاعد من فمه دخان كثيف ..
وظهرت قطرات الندى تلمع على أوراق البرسيم الداكنة الخضرة ..
وتوقفت احدى البهيمتين ترعى بقايا خضرة الأرض .. فتصاعد من
ورائها صوت ينهرها : (حا) ، وكان الصوت صوتا نسائيا على ما فيه
من غلظ وخشونة فقد كان السائر وراء المحراث امرأة .. أجل .. كان
الجسد الطويل الفارع ، المتين البنيان ، هو جسد أم بهانة .

وقد أخذت تحرث الجزء الباقي من أرضها الذى لم يتم زرع
بعد .. لم يكن المرأة لتفترق عن الرجل فى شىء .. وأعنى بالرجل ..
الرجل الشديد المراس ، القوى الشكيمة .. المهاب الجانب .. الموفور
الكرامة .. وكانت تقوم على زرع أفدنتها الخمسة بنفسها لا يعينها فى
ذلك سوى ابنتها بهانة ، وعامل أو عاملان تستأجرهما فى وقت تغير
الزراع .. واستمرت المرأة فى تقليب الأرض جيئة وذهاباً بينما أخذ
ذهنها يكد فى التدبير .. ماذا فعلت ؟ . وماذا ستفعل ؟ . هل تبيع فدان
البرسيم - الفجل - أم تمهل قليلاً ؟ .. ثلاثة جنيهاً للقيراط ليست
بالسعر الذى تطمع فيه .. ولكنها تخشى ان استمرت فى الرفض أن
تضيع الفرصة ويور البرسيم .. ثم ان السيد الساقط خير من غيره ..
فهو مضمون فى الدفع .. سريع فى حمل البرسيم لأنه متعهد بالجيش ،
وسيحلى لها الأرض فى يوم أو يومين . فتستطيع أن تنتفع بزراعتها مرة
أو مرتين خضروات .. ثم قفز ذهنها قفزة سريعة الى محصول الذرة ..
لقد كان الإنتاج وفيراً فى هذا العام .. وهى تأمل أن تسدد منه المال ..
وتبتاع الكسوة وتوقف ذهنها عن التفكير فجأة ، وبدرت منها صيحة
غاضبة محدرة : (يا بهانة حولى المياه .. لقد كاد الحوض أن يغرق)
وعلى مسافة قريبة بدت بهانة وقد انحنت تضرب الأرض بفأسها وتحول
المياه عن حوض البرسيم القريب .. الى حوض آخر .. ثم انتصبت واقفة
فبدا جسدها استواء وامتلاء .. وبرز صدرها بروزا طبيعياً غير متكلف
ولا مصطنع وسألتها أمها :

- هل أحضرت تقاوى اللفت لكى نبذره على الفحل ؟

- أجل .. لقد وضعتها بجوار الجميزة .

وتحوّل بصر المرأة الى الجميزة القائمة على قارعة الطريق فرأت بجوارها رجلا يقطع بفأسه من كوم السماد القائم أسفل الشجرة ، وعاد ذهن المرأة فى الشرود مرة أخرى .. وبدأ على وجهها تجهم شديد .. لشد ما كان يسوءها من ابنتها هذا التهافت منها على محمود ابن الشيخ معاطى .. ماذا حدا بالفتاة الى أن تخصص هذا الفتى وحده دون سائر خلق الله بعطفها أو حبها .. هذا المخلوق الذى كانت تحبس له المرأة حقدا وضغينة لم تستطع الأيام فى مرّها أن تمحوها أو تخفف من حدّتها .. لقد كانت ترى فيه ملامح أمه .. أمه الفاجرة العاهرة التى أفسدت عليها حياتها ، وسلبتها الراحة والنعيم .. وانطلق ذهنها يعدو فى ضروب الماضى البعيد .. المظلم الأرجاء .. الشبيه بذلك الضباب الذى يحيط بها .

وبدأت تستعرض صورهِ الباهتة ، فأبصرت بنفسها فى ربيع العمر ومستهل الحياة .. وأبصرت زوجها فى ريعان شبابه ومن حولها الأرض الطيبة .. وقد أخرجت الزرع من باطنها أخضر تجرى فى عروقه ماء الحياة .

كانت تحس وقتذاك أن أفدنتهما الثلاثة ضيعة واسعة .. وأن بيتهما الطينى قصر شامخ .. وهل يمكن أن يحس صاحب الضيعة وصاحب القصر بسعادة أكثر من تلك السعادة التى تفيض بها نفسها ؟ وتذكرت كيف وضعت بهانة وكيف ألم بنفسها حزن .. خشية أن يحزن زوجها لأنها لم تنجب له ولدا .. ولكن زوجها لم يحزن ولم يكتب .. على النقيض ، لقد كانت فرحته بالطفلة لا توصف .. وتذكرت بعد ذلك كيف بعثت الطفلة فى حياتها ضياء فوق ضياء .. ومنحتها هناء فوق هناء .. وكيف كان أبوها يتفائل بها فلا يفتح عينيه

فى الصباحت الا اذا أضررتها له حتى تكون أول ما يفتح عليه بصره ..
واستمرت قاعة بحياتها راضية مرضية حتى بدأت تبصر بأول سحب
الشقاء تعكر صفو حياتها .. انها تذكر أول يوم رأت فيه تلك السحب
المعتمة حين أقبل عليها زوجها يقول لها فى غير اكتراث :

- هل سمعت ما فعله ذلك الشيخ المخرف ؟

- من ؟

- الشيخ معاطى ا

- الشيخ معاطى رجل مخرف ا .. حرام عليك .. انه من أفاضل
الناس .

- لقد كان من أفاضلهم حتى أمس .. أما اليوم فقد أضحي من
مخاييلهم .

- ولم ؟ ماذا حدث منه ؟

- لقد تزوج .

وبهتت المرأة بعض الشيء .. ولكن ما تعرفه عن طيبة نفس
الرجل وقوة إيمانه جعلها تدافع عنه لتلمس له المعاذير فقالت :

- وما العيب فى أن يتزوج ؟ .. لقد مضى عامان على وفاة زوجته
والرجل ما زال - رغم بلوغه الخمسين - فى عنفوانه وفى أوج
صحته .. فلم نحرم عليه ما أحله الله ؟

- هل تدرين من تزوج ؟

وهزت رأسها بالنفى قائلة :

- وأنى لى أن أعرف !

- تزوج سنية الغازية .

وبدرت منها صيحة دهشة لم تستطع كتمانها ووجدت نفسها تكرر - وهى مبهوتة - سنية الغازية ! قل شيئاً غير هذا ! ان الشيخ معاطى رجل عاقل .

وكان من العسير عليها أن تصدق أن الرجل الطيب الرزين الحكيم .. قد أقبل على مثل هذا العمل الجنونى حتى رأت - الغازية - بعينى تحتل دار الشيخ وتجلس معه موضع السيدة .. ترى ماذا أصاب الرجل حتى دفعه الى التردى الى تلك الهاوية ؟ .. أمثله يتزوج المرأة الملوثة العاهرة ؟ .. هذه المرأة التى ليس لها مورد للرزق الا رنين الصاجات بين يديها .. وهز الردفين ، وعرض جسدها للبيع والايجار ، ولم يحاول أن يستمع لنصح ناصح .. بل ركب رأسه واتبع هواه وأعرض عن الناس وأعرضوا عنه .. وانطوى مع امراته فى عقر داره .. حتى مرّ بهما عام أو ما يقرب العام .. فوضعت له ابنة محمود .. وكانت فرحة الرجل بالطفل شديدة ، وهو الذى عاش مع امرأته الأولى دهرا طويلا .. لم ينعم الله عليه بالبنين .

وبدأ الناس يصلون ما انقطع من الصلوات بينهم وبينه ، بعد مارأوا من امرأته ذلك الانطواء والإقلاع عن الفسق والفجور وكان أول من وصله .. هى وزوجها .. أجل .. لقد عادت الصلة بين الجارين الى ما كانت عليه ، وحلت المودة محل القطيعة .. وبدأت هى تقبل على -

الغازية - وتتخذ منها صديقة لها .. ومّرت الأيام فاذا بها تلحظ تغيرا ملموسا فى سلوك زوجها ومعاملته لها ، فلم تجد منم ذلك الحنان والإقبال .. وساء خلقه .. ولاحث لها فى الجو بوادر عاصفة تكاد تودى بحياتها .

لم يكن من العسير عليها أن تدرك أن الحية قد بدأت تلعب بذيلها ، وتنصب الحبال حول زوجها .. فقد أخذت الألسن تتناقل الإشاعات بأن هناك صلة بين زوجها وبين الغازية .. وأنهما قد اتخذا من الجميزة محلا مختارا لعلاقتهما الآثمة .. ولم تكتف الغازية بصيد واحد .. وبدأت تمد شباكها لتوقع ما تستطيع من الرجال .. فاذا بها تسمع عن علاقات أخرى بينها وبين ابراهيم شيخ الخفراء ، وبين عبد الصبور ابن العمده . وكبتت المرأة أحزانها بين الضلوع وقالت لنفسها : نوبة طارئة من الهوى والطيش سرعان ما تزول وفترة جموح سرعان ما يعود بعدها الى سابق هدوئه وسكنته ، وحاولت جهدا أن تخفى يرتها وأن تعالجه باللين حتى يعود الى حظيرتها .. وأخيرا عاد الى حظيرتها ، ولكن عودته كانت بشكل لم يخطر لها قط على بال .. ذلك لقد كانت عودته فى حلقة الليل محمولا على الأعناق .. مضرجا بدمائه لانفس فيه ولاحراك .

تذكرت كيف دوى فى سكون الليل صوت الرصاص .. وهى جالسة تنتظر عودته كما تعودت دائما أن تنتظره ، وقد وضعت ابنتها فى حجرها .. وكانت ترفع أكفها من آن لآخر الى السماء تدعو الله أن ينقذه من تلك الحية الآثمة .. وقد عصفت بنفسها الغيرة والحزن وقد أفرعها دوى الرصاص .. ولكن فزعها لم يكن أكثر من فزع البهيمنين المستلقيتين أمامها عندما فتحتا عينيها لحظة .. ثم عادتا الى

سباتهما .. كما عادت هي الى الاستغراق فى التفكير حتى أحست بعد لحظات بوقع أقدام تقترب فى الخارج .. وأصوات مختلفة تتصايح وتتهامس .. ثم دفع الباب وأبصرت على ضوء الذبالة التى تتراقص جسد زوجها والدماء تقطر منه .. ودوت منها صيحة ذعر وارتعت على الجسد مولولة نائحة .

وكان الرجل مازال فيه بقية رفق ففتح عينيه واستغفرها ثم اسلم الروح ، وأجرى التحقيق بعد ذلك .. فلم يكشف القاتل .. اذا لم يعرف سوى أن الرجل كان يجلس تحت الجميزة عندما أصابته الرصاصة وقيدت الجريمة ضد مجهول ، ومع ذلك فقد كانت هي تعرف القاتل .. وتعرف يقينا أنه لم يكن سوى ابراهيم شيخ الخفراء .. وأحد المتنافسين على الغازية ، وأنه قد قتله عندما أبصره يجلس واياها تحت الجميزة .. فاختفى بين عيدان الذرة وأفرغ رصاصته فى صدره فأرداه قتيلا .. ولكن أى فائدة من أن تدلهم على القاتل .. وهي لاتعرف فيما بينها وبين نفسها أن هناك قاتلا سوى المرأة الفاجرة ؟ . أى فائدة تعود عليها وهي لن تفعل أكثر من أن تضيف الى ضحايا المرأة ضحية أخرى .. ثم تظل هي بعد ذلك بمنجاة عن العقاب ؟ لا .. لا .. ان ابراهيم شيخ الخفراء - رغم أنه قاتل - فانه فى نظرها لا يعدو أن يكون ضحية بريئة .. أما القاتل يجب أن تتأمر لنفسها منه فهي المرأة ، ولكن الغازية لم تعطها فرصة الانتقام .. وقد فرّت من القرية تاركة زوجها محطما مهتما .. لا يعزيه فى الحياة سوى ابنه الطفل .. ومرت السنوات بها بعد ذلك وجمرة الثأر تتأرجح فى نفسها .. وسوس الانتقام ينخر فى صدرها فيقض مضجعها .. ويثقل كاهلها ويقوض ظهرها .. وقاومت الزمن والأحداث .. فضاعفت فدادينها الثلاث .. وأطلق عليها أهل القرية اسم

(المرأة الرجل) .. وكبرت ابنتها وأضححت فتاة مكتملة ناضجة .. ونما ابن الغازية وأضحى شابا فارع الطول .

ودفع القدر كلا منهما فى طريق الآخر فاذا بكل منهما يقع فى هوى صاحبه ، وكانت تجس للفتى الحقد الذى كانت تضمه لأمه .. وكانت رغبتها المكبوتة فى الانتقام من الأم تدفعها الى أن تحوّل انتقامها اليه .. فكانت تحاول دائما أن تبعد بينه وبين ابنتها .. وبدأت تقرب اليها الفتى الوحيد الذى يستطيع أن يقف ندا له ويتزعمها منه .. وهو عليوة ابن ابراهيم شيخ الخفراء .. لقد بدأت تضرب أحدهما بالآخر .. ابن القاتل فى عرف القانون .. وابن القاتلة فى عرفها .. فهذه خير وسيلة للشار لزوجها .

وسطعت الشمس دافئة فبددت الضباب وبدأت الخضرة ممتدة على مدى البصر .. وانتهت المرأة من حرث قطعة الأرض .. وانتهت الابنة من رى البرسيم المسقاوى بعد أن حذرتها أمها من أن تمتد المياه الى البرسيم الفحل لأنها قد نوت بيعه .. ورفعت بهانة بصرها فوقع على محمود وقد وقف فى نهاية الطريق وأخذ يشير لها خفية فأجست بقلبها يهفو .. وودّت لو تطير اليه ولكنها كانت تعلم ما تضمه أمها نحوه .. وتعلم كيف حذرتها من لقائه أو الحديث معه . وتعلم أن عقابا يمكن أن توقعه بها لو علمت بأنها تخالف أمرها ولم تكن الفتاة تدرك بعد سر بغض أمها للفتى ، ولا كانت تعلم شيئا عن الماضى الدفين فى صدرها .. بل كل ما كانت تعلمه هو أن أباهما قد مات وهى طفلة لاتعى فى الحياة شيئا .. وأن أمها هى كل ما لها فى هذه الدنيا .. وانصرف محمود دون أن تجسر الفتاة على الذهاب اليه .. ومَرّت الساعات والأم وابنتها منهنكتان فى زراعة الأرض .. وقيل العصر بدأت الأم تفك

البهائم وأنبات ابتتها أن تستعد للعودة الى الدار .. ودهشت الفتاة فقد كان الوقت ما زال مبكرا .. واستفسرت من أمها عن السبب فى هذه العودة المبكرة فأنباتها ببساطة أن عليوه وأباه سيحضران لقراءة الفاتحة ولإتمام الخطوبة .. وأحست الفتاة بغصة فى حلقها وبرغبة شديدة فى البكاء .. ولكنها كتمت ما بها ، فقد كانت تعلم أنه لا فائدة من الاعتراض .. وتبعت أمها الى الدار ، ولم تمض فترة قصيرة حتى حضر الشيخ ابراهيم وابنه وقرأت الفاتحة وانتهى الأمر .. وخرج الفتى والفتاة يتنزهان على شاطئ الترعة .. وكانت الفتاة لاتكاد تتماسك .. اذ كانت تحس أنها لاتبصر ما أمامها وأنها على وشك الانهيار بين لحظة وأخرى .. ووصلت الى الجميزة وهى مطأطئة الرأس واجمة حزينة .. ورنّت ببصرها فاذا بها تبصر أمامها محمود .. وأحست بقلبها يكاد يقفز بين جوانحها .. وتمنت لو استطاعت أن ترتضى بين أحضانه .. ولكنها لم تجسر .. ووقفت متسمة فى مكانها وكان محمود أول من تكلم فقد سألها فى دهشة واستياء :

- الى أين ؟

واجابه عليوة فى غضب مكتوم :

- ليس من شأنك تسأل !

- وقال محمود فى سخرية واحتقار :

- خير لك أن تتركها وتعود من حيث أتيت .

- أنا أتركها ؟ ! أترك خطيبتى ؟

- خطيبتك ؟ !

ثم نظر الى الفتاة يستوضحها جليلة الأمر فأطرقت وقد سالت من عينيها دمعتان صامتان ، وعلم محمود الحقيقة وأدرك أن أمها قد فعلتها .. وأن الفتاة قد أجبرت على ما حدث .. وانتابته ثورة غضب جامحة .. وأدرك أنه لن يستطيع الحياة بدون الفتاة ، وأن من العيث أن يحاول التفاهم مع أمها .. فهجم على عليوه .. واشتبك الإثنان .. ولم تمض لحظة حتى كان عليوه طريح الأرض والدماء تسيل من جرح في جبهته وقد فقد وعيه .. ونهض محمود وهو يلهث وقال للفتاة :

- هيا ..

وسألته وأنفاسها تتلاحق من فرط الذعر :

- الى أين ؟

- نهرب من القرية .

ونظرت الى الفتى الراقد بلا حراك ثم قالت هامسة :

- عليوه .. أتركه هكذا ؟

ولكنه لم يجبها بل جرّها من يدها وابتعد بها وسط الظلمة ولم تقاوم الفتاة فقد كانت تحس بالحنين اليه فأخذت تهوّل بجواره وهي مشدوهة حيرى .

وسألته فى الطريق :

- ألا نذهب الى بيتكم فقد يستطيع أبوك أن يدبر أمرنا ؟

- أبى ! هذا العاجز المريض الواهن المشلول الذى لا يستطيع حتى أن يدبر أمر نفسه .. تنتظرين منه أن يدبر أمرنا ؟

ان بيتنا هو أول مكان سيخطر على بالهم أن يبحثوا عنا فيه ..
خير لنا أن ننطلق الى القاهرة فلن نعدم وسيلة للرزق والمدينة واسعة
تستطيع ابتلاعنا في جوفها فلا يعثر علينا أحد .

ومع ذلك فقد استوقفهما أول شرطى صادفهما في نقطة المرور
الكائنة عند مدخل المدينة .. فقد أبلغ المركز عنهما ، وأعيدا الى القرية
مرة أخرى وأودعا مركز الشرطة وهناك وجدت الفتاة أمها والشيخ
ابراهيم . فأحست بخيبة أليمة وحزن مرير .. وكانت الأم تشعر بنشوة
ولذة الانتقام لقد سقط ابن ابراهيم الشيخ صريعا بين الحياة والموت ..
وهاهو ابن (الغازية) سيوضع في السجن بتهمة الشروع في قتل . وفي
تلك اللحظة أقبل شيخ واهن العظم يجر ساقيه ويتوكأ على عصاه ..
ووقف بين القوم يلهث وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه .. وتبين فيه القوم
الشيخ معاطى فأخذوا لمرآه وعجب ابنه كيف استطاع أبوه أن يصل
الى المخفر وهو الذى لا يكاد يغادر فراشه .. وتحدث الشيخ موجهها
القول الى المرأة المنتصبه أمامه فى عناد وتحد والتى بدت فى عينيها
ومضة الفوز :

- أنا أعرف ما برأسك .. أعرف مالا يعرفه أحد من هؤلاء
كلهم .. أعرف طريقتك الصبورة فى الانتقام ، ولكنى أكره أن تحمل
أبنائنا أوزارنا .. انى وحدى المسئول عن كل ما حدث . أنا الذى
أدخلت الجرثومة الفاسدة فى معشرنا الطيب .. وأنا الذى كان يجب
على أن أتحمّل وزر ما فعلت .. كان يجب أن أقتل أنا زوجك دفاعا
عن شرفى المهين بدلا من أن أترك الشيخ ابراهيم يقتله وأتركك تتأثرين
منه ومنها فى ولديهما .. كان يجب أن أقوم أنا بالتأثر بدلا من أن أدع
الغير يتحمل عنى وزره .. ومع ذلك فانى لا أجد الوقت قد فات فأنا

أشعر أنى قادر على أن أثأر لنفسى ولك .. وأن أحمل العبء عنكم جميعا .

وانتفض الشيخ العاجز ، وفى لمح البرق ، وقبل أن يدرك أحد من الجمع ما ينوى أن يفعل .. اختطف بندقية من يد أحد الخفراء ثم أفرغها فى صدر ابراهيم شيخ الخفراء .. وخر الرجل صريعا ، وألقى الشيخ سلاحه وهو يقول :

- هكذا يجب أن يكون الثأر .

ثم حاول أن يتلمس عصاه ليتوكأ عليها .. ولكن قواه التى حشدها فى لحظة الثأر كانت قد خارت .. لقد استنفدت فعلته كل مابقى من زيت فى سراج حياته .. فكانت ثورته أشبه بومضة برق خبت بعد اشتعال .

وهوى الشيخ فى مكانه وتكأ كأ عليه الخفراء .. ولكنه كان قد أفلت من بين أيديهم .. لقد أطلقوا على جسده ، أما روحه فكانت قد صعدت هاربة .

وجر الحراس جسد الشيخين الى الخارج ، وأحست أم بهانة أن جذوة الثأر فى نفسها قد انطفأت .. وعجبت لنفسها كيف أمضت السنين الطوال تذكى لهيها وتشعل أوارها .. وأحست أنه لم يعد هناك موجب للانتقام من محمود .. وغادرت المخفر مطأطئة الرأس منحنية الهامة .

ومدت بهانة يدها الى محمود فضغطت عليها معزية وهمست قائلة :
- لقد ظننته عاجزا .. ولكنه استطاع أن يدبر أمرنا قبل أن يرحل .. لن أتركك بعد هذا أبدا .

ودموع الشعيرة

موجة الحب قد غمرت الشاعرة .. وتيار الهوى قد جرفها فيما جرف ،
وهي التي كانت تجلس على الشاطئ مطمئنة آمنة .. تدفع بالناس
الى خضمه الصاخب وتنأى بنفسها عنه .

كانت الشاعرة لا تباشر الحب الا بالألفاظ والقوافي .. وكانت
تلهب نفوس العشاق بأشعارها الحالمة ، ولا تتأثر هي الا بقدر ما يتأثر
حانوتى فى ماتم .

لم تدر من علّمها نظم القصيد .. فقد كانت شاعرة بالفطرة ..
وكانت تقوله لأنها لا يمكن أن تقول سواه .. ولم تكن هي نفسها لتشعر
بسحره وقوته .. الا من انعكاسه على نفوس الناس .. ومن تأثيره فى
مشاعرهم .. كانت تعلّم الناس الهوى .. وهى اجهلهم به .. وكان
شعرها يفيض بالحب .. وهى أشد الناس خلوا منه .. كانت كساقى
الخمر يشمل الناس ولا يشمل .. ويملاً بالنشوة رؤوسهم وهو أبعد مايكون
عن النشوة .. كانت ساقية الهوى فى كؤوس الشعر .

وفى ذات مرة ذاقَت الشاعرة طعم الهوى .. وذاقته من يد ساحر
لم تقو على مقاومة سحره لحظة واحدة .. واستسلمت فى لين ورفق ..
ووضعت شفتيها على حافة الكأس وأقسمت ألا تكف عن الارتشاف ..
لقد أحبت الشاعرة !

أولئك الذين سلقهم بلسانه .. اذ كان انسانا ذا شخصيتين .. فهو
يبدو فى حياته رقيقا هادئا .. جم الحياء . أما على صفحات الصحف
التي يكتب بها فصول نقده .. فهو هجاء نقاد ، سلط اللسان لا يرق
ولا يلين .

ولم تك قد مضت أيام على سر ذلك النقد اللاذع الذى كبه
عن مسرحية (الخطايا) التى كانت تقوم فيها صاحبتنا بدور البطولة ..
فصب عليها جام سخطة ، أو كما قال كل من قرأ النقد : مرمط بها
الأرض .

وتنهض بدوره ومدّ يده مصافحا .. وقام الأستاذ شاكر يواجب
التعريف .

– الأستاذ ابراهيم الكاتب العبقرى والناقد المعروف .. أمينة هانم
فكرى الممثلة القديرة والنجمة اللامعة . هذا تعريف صورى لا محل
له .. فلا أظن كلاكما الا يعرف الآخر خير معرفة .

وصمتت برهة وهى تفحصه بعينها ثم أردفت قائلة :

– الأستاذ ابراهيم : تشرفنا يا أفندم .. طبعاً أعرفه .. ومن الذى
لا يعرفه ؟

وأحسن ابراهيم ببعض الارتباك وتمتم قائلاً :

- العفو يا افندم .

وصمتت برهة وهي تفصحه بعينيها ثم أردفت قائلة :

- من الذي لا يعرفه ؟ ومن الذي لم يسلم من لسانه ؟ وهو أشبه بالفتوات داير يبطح في خلق الله .

وضحك ابراهيم وقال وهو يحني رأسه في رقة وأدب :

- العفو يا افندم .

وتدخل شاكر قائلاً :

- تفضلي يا أمينة هانم .

ومد يده فجر كرسيا .. وجلس الثلاثة حول المائدة .. وصفق شاكر بيديه ينادى الساقى . وقالت أمينة موجهة القول الى ابراهيم .

- أريد أن أعرف يا أستاذ .. هل بيننا ثأر قديم وعداوة مبيتة ؟ ونظر اليها ابراهيم فاحصا .. فوجد بها نضارة عجيبة .. ينذر أن توجد في الممثلات ، وصمتت برهة وأجابها ضاحكا :

- أتقصدين مثلاً أن أبى قد قتل أباك ؟

- سل نفسك .. ما سر تلك الحملات الشعواء التي تشنها على ؟

- ان واجبي النقد .. وأنا أحاول أن أقول الحق قدر ما أستطيع .

- لا .. لا يا أستاذ .. أنت هدام .. هذا ليس نقداً .. هذا ضرب بالسياط .. هل تدري .. أنني فكرت في أن أزورك لأطلب منك الرفق والرحمة ؟

- يا افتدّم العفو .. هذا كثير .. هذا تقدير لا أستحقّه . فلا أظن تلك الكلمات التي أكتبها لها تلك القيمة .

- أشد ما يؤسف له أنها كذلك .. هل تدري أية خسارة سببتها لي حملاتك تلك ؟ أربعة عقود مع أربع شركات سينمائية مختلفة قد أضعتها من يدي .. ألم تقل عني في نقدك لفيلم (الهاربة) أنني أتلفت الفيلم ؟ .. ان أسوأ مافي الأمر أن لكتابتك قيمة .

- هذا شيء لو كان قد حدث حقاً فاني عليه جدّ آسف . أنا لم أقصد قط أن أسىء اليك .. ولكنني قصدت بنقدي اصلاحك .. فاني أرى فيك معدناً طيباً .. لديك ما يجعل منك ممثلة عالمية .. لديك مواهب كامنة لم تستغل قط .. ان عيبك - كما قلت من قبل - هو أنك لاتحيين في دورك . انك تؤدينه بطريقة سطحية ، لا حرارة فيها ولا عمق ولا ايمان .. يجب أن تكوني أنت نفسك تلك المخلوقة التي تقومين بدورك .

- اني أحاول ذلك فعلاً .

- المحاولة شيء والنجاح شيء آخر ، فالنجاح في التمثيل ليس مجرد النية والمحاولة ، ولكنه موهبة وجهد .. ان لديك الموهبة ولكنك لاتبذلين الجهد . فالجهد هو كما قلت لك أن تحي في دورك ، فلا يبدو قط أنك تبذلين جهداً .. ان أقصى الجهد هو الذي لا يبدو جهداً .

- وماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك ؟

- عيشي في الدور الذي تؤدينه .. انسي نفسك .. ان لدي فكرة لأشك ، لو حاولت تنفيذها ، في أنها سترفعك الى القمة ، وتجعل منك شيئاً آخر .

- تنوى بيعها لى ؟

- لا .. بل سأهبها لك مجانا .. لقد قلت لك انه يجب أن تتلاشى شخصيتك فى دورك .. ويبدو لى أنك لاتستطيعين أن تفعلى ذلك بمجرد محاولتك أن تحيى فى دورك فى فترات التمثيل على خشبة المسرح .. أو أمام الكاميرا .. فلم لاتجربى أن تحيى دورك فى حياتك كلها .. سواء على المسرح أم فى الحقيقة ؟ .. ألبسى دورك فلا تخلعيه بمجرد مغادرتك المسرح .. بل ابقى كما أنت .. وأحيى دورك فى الطريق .. وفى الدار .. وفى كل مكان .. ولا تخلعيه حتى تنتهى منه تماما .

- ولكن هذا كلام خيالى يسهل قوله ويستحيل تنفيذه . هناك أدوار لا أستطيع أن أقمصها خارج المسرح . أدوار أكرهها لأنها قد لا تلائم طبيعتى .

- لاتقبلى قط أدوارا لا تحبينها ، أو لا تلائم طبيعتك .. لاتقبلى سوى الأدوار التى تتوقين الى الحياة فيها ، وتحسين بمتعة خلال القيام بها .

- لا تدعنا نحلق فى سماء الأوهام فلو فعلت ما تشير به ولم أقبل الا الأدوار التى أرغب فيها ما استطعت أن أكون ما أنا عليه ..

- بل لأضحيت خيرا مائة مرة مما أنت عليه .. لم لاتجربى ؟ وضحكت أمينة ، وتدخل شاكر بعد طول انصات ، وقال لها ضاحكا :

- لاتصغى اليه ، فلن تأخذى منه غير هذه الأوهام .. هو لايحسن سوى الكتابة .. المهم هو أن تعطيه الآن انذارا نهائيا لكى لايعاود الحملة عليك . ما رأيك ؟

وهز ابراهيم رأسه وهو ينظر اليها نظرات عميقة وقال :
- لو لقيتها قبل الآن لما استطعت أن أحمل عليها قط .

★ ★ ★

مضى على اللقاء عامان .. ونحن الآن فى حديقة احدى الفيلات
بمصر الجديدة وقد اضطجع ابراهيم على أحد المقاعد الطويلة ، وبدأ
شارد الفكر مغمض العينين . وقد أخذ يستعرض فى ذهنه ذلك اللقاء ،
وأخذ يذكر كل ما جرى بينها وبينه .. من كان يظن هذا ؟ من كان
يظن أنه أول من سيكتوى بنيران تلك الفكرة العريضة التى أوحى بها
اليها وقتذاك ؟ تحيا فى دورها ؟ لافى المسرح فقط بل فى الطريق وفى
الدار وفى كل مكان ؟ وتتقمص الشخصية التى تقوم بتمثيلها .. فلا
تخلعها حتى تنتهى تماما من أداء الدور وتنفض يدها منه ؟

أى جنون هذا الذى دفعه الى أن يفضى اليها بذلك القول ؟ فض
فوه قبل أن ينطق بتلك السخافة التى تثقل اليوم كاهله وتذيقه الأمرين ..
ولكنه معذور ، فما كان يتخيل وقتذاك أن النصيحة مستنقبة بمثل هذه
الطريقة ، وما كان يخطر له على بال قط .. أن ما حدث بينهما شىء
يمكن حدوثه .

لقد التقى بها بعد اللقاء الأول مرة ثانية وثالثة ورابعة .. وفى كل
مرة يلقاها يرى فيها شيئا جديدا . أجل لقد تكشفت له عن مخلوقة
عجيبة .. ليس بها من ذلك النوع الذى كان يظنه منها أى شبه أو
صلة .. مخلوقة مرهفة الحس ، طيبة القلب ، نقية السريرة ، شديدة
الذكاء ، حلوة المعشر ، يطغى جمال بأطنها على جمال ظاهرها .

ومرت به الأيام وهو يحس أن قيذا يشد وثاقه اليها وأنه قد باتت ضرورة من ضرورات حياته ، لا يستطيع عنها حولا .. وأخذت هي الأخرى تنساب في تيار الهوى .. وبدأت تجد فيه نوعا من الآلهة ، وتجد في أحاديثه ونصائحه حكما سماوية يجب أن ترضخ لها ، وودت لو استطاعت أن تنفذ نصيحته الذهبية التي كان لا يفتأ يكررها لها .. (أحى في دورك .. على المسرح وفي خارج المسرح .. ولا تخلعيه حتى تنتهي منه .. انسى نفسك وكوني دائما المخلوقة التي يود المؤلف ابرازها) .

وزادت رابطة الحب بينهما توثقا على مر الأيام ، ولم يكن يخطر بباله في يوم من الأيام قبل أن يلقاها أنه يمكن أن يتزوج ممثلة .. فقد كان يعتقد أن الممثلة لا يمكن أن تصلح زوجة وربة دار .

ولكنها بددت من رأسه تلك الأفكار .. فقد وجد فيها خير من تصلح لأن تكون زوجته وأم بنيه .. وجد فيها نفسا قوية أية حنونة ، وجد فيها بعدا عن التفاهة .. وجد فيها عمقا وحساسية .. فأقدم علي الزواج منها .. وهكذا أضحي الناقد زوجا .. وأحست هي أن الله وهبها من نعمائه ما أعجزها عن الشكر .

وبدأ في ذلك الوقت عرض المسرحية الكبرى (الظلال المدلّهة) التي تقوم هي فيها بدور البطولة ، وسبق العرض بروفات عديدة ، بذلت فيها جهدا جبارا فقد كانت ترجو أن تبلغ الكمال ، حتى اذا ما ترفق بها في نقده ، ترفق بها غير مرغم ، كانت تريد الإجادة ، حتى اذا امتدحها كان أمينا في نقده . كانت تريد أن تثبت له أنها تحيا في دورها حقا وأن نفسها تلاشت في الشخصية الجديدة التي تقمصتها .. وبدأ هو يحس مبلغ ما في نصيحته من السخف والجنون عندما وجد أن

المخلوقة التي تدله في حبها قد أخذت تتسرب من يده ، المخلوقة العميقة الذكية الهادئة المتزنة الحس .. وأنه قد استبدل بها مخلوقة أخرى تافهة رعناء مخبولة تكره الدار وتبغض الأطفال .

وأسقط في يده ولم يدر كيف يقنعها أن تنسى نصيحته ، وأن من الجنون أن تستمر مرتدية تلك الشخصية التي تقوم بدورها على المسرح في حياتها الخاصة ، وأنه يجب أن تنسى كل شيء عن دورها بمجرد أن تترك المسرح ، والا أضحت الحياة بجوارها جحيما لا يطاق . وبدأ يذوق الأمرين في الاعتذار عن هفواتها وسخافاتنا وحماقاتنا مع المعارف والأصدقاء ، ولم يكن يعزبه شيء إلا أن المسألة ليست إلا مسألة طارئة وأن دوامها لن يزيد على عرض الرواية ، وحمد الله على أن دورها على ما سببه له من متاعب خير بكثير مما كان يمكن أن يكون .

ونجحت هي في دورها الجديد أيما نجاح وبلغت في تمثيلها الذروة ، وقال عنها النقاد أنها امرأة عبقرية ، وأن المسرح لم ير مثلها منذ عدة أجيال ، وانتهى أخيرا عرض الرواية ، وأحس هو بعبء يتزاح عن كاهله ، وتنفس الصعداء عندما شعر أخيرا أن المخلوقة المثالية التي أحبها قد عادت إليه وأنها قد خلعت ثوب التفاهة الذي ترتديه .

ومرت عدة أسابيع وهو ينعم بحياة هادئة .. حتى كان ذات يوم وقد عاد الى داره ، فسمع صراخا شديدا ، وأسرع الى مصدر الصراخ فوجدها تقف أمام المرأة وقد تمزق ثوبها من فوق كتفها وتهدل شعرها على وجهها وبدأت في بعينها نظرات فزع مجنونة ، ووقف أمام الباب يلهث ويسألها عما بها ، وفجأة انطلقت منها ضحكة عالية وقالت له :

، رأيك ؟

- فيم ؟

- فى هذا الدور الجديد .

ثم مدت يدها اليه بمجموعة أوراق مخطوطة .. وأمسك هو بالرواية وأحس أن رأسه يدور به ، واتخذ مجلسه فوق أحد المقاعد ، ووقفت هى وراءه وقد أحاطته بذراعيها ، ومن الصفحة الأولى أدرك الرداء الذى تنوى زوجته ارتدائه ، أو على الأصح تبين أى زوجه جديدة يوشك أن يعيش معها .. لقد كان دور البطلة فى الرواية الجديدة (عاهرة مجنونة) ياساتر يارب .. عاهرة ومجنونة ؟

- لا .. لا .. الا هذا .

ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، ونظرت اليه بعد أن أطبق الرواية وقالت له :

- طبعاً .. ستقول كعادتك دائماً ، أنها بايخة .

- لا .. لا .. ان عندى فكرة جديدة أود أن أعرضها عليك .

- أريد أولاً أن أعرف رأيك فى الرواية ؟

- لا أستطيع أن أبدى رأى فيها قبل أن أتم قراءتها ، ولكنى سأعرض عليك فكرة هائلة .

وسادت فترة صمت طويلة بدا خلالها كأنه قد استغرق فى تفكير عميق ثم قال لها :

- ما رأيك فى أن أكتب مسرحية خصصتها لك ؟

- أنت ؟ ولكنك لم تكتب مسرحيات من قبل .
- وهل هذا معناه أنى لا أعرف الكتابة ؟ سأكتب لك الدور
الذى خلق من أجلك ، و خلقت من أجله .

ومرت الأيام بعد ذلك ، وهو لا يفعل شيئاً سوى كتابة المسرحية
الجديدة وقد سجن نفسه فى حجرته لا يزور أحداً ولا يكلم أحداً ..
وانتهى أخيراً من كتابة المسرحية ورسم بطلتها كما يشتهى .. زهرة
ناضرة .. يفوح منها الشذى ، ويتضوع منها العبير ، امرأة مثالية ..
سديدة الرأى ، صافية الذهن ، عاقلة مدبرة ، وفيه مخلصه .. ربة دار
وأم أطفال ، تعين زوجها على الحياة ولا تعينها عليه .. هادئة طيبة ،
حمالة للأسى ، صبورة على المكاره .. لقد رسم بها ذلك الشيء الذى
عشقه فى صاحبته وسلط عليها من أضواء قلبه وأوهام ذهنه ما وضعها
مصاف الملائكة .

وأعطاها الرواية لكي تقرأها وتبدي له رأيها فيها ، وجلس فى
الحديقة ينتظر فى قلق وخشية ، كيف ستقع الرواية من نفسها .
ومر الوقت بطيئاً مملاً حتى أحس بوقوع أقدامها على رمال الحديقة
ثم أحس يديها تحيطانه من عنقه . وسألها هامساً :

- كيف وجدتيها ؟

فأجابت :

- مذهشة .

ثم أدارت وجهها فأبصر فى عينها دمعة تترقرق وسألها فى
دهشة :

- ما بالك ؟

فقلت :

- لقد رسمتني كما تريد .. وسأكون كما رسمتني .

ثم مدت يديها اليه بالرواية وقالت :

- خذها لا حاجة بي اليها .. اني أستطيع أن أحيأ في دورى
الذى رسمته بدون حاجة اليها .. اني سأحيأ في دورى هنا فى الدار
فقط .. سأنجب أطفالا فى الحديقة لا على المسرح .. هذا هو دورى
الأخير .

★ ★ ★

المرور واللاغير

لم يكن يخطر على باله قط أنه سيلتقى بها .. عندما جلس والأستاذ
على شاكر صاحب جريدة (المساء) في تراس شبرد يرشف قدحا
من القهوة فاذا به يلمحها مقبلة تصعد درجات السلم في خفة .

ولقد تملكه من رؤيتها شعور بالدهشة والإعجاب فقد كانت في
حقيقتها أكثر روعة مما تبدو على الشاشة أو على المسرح .. وشعر
بالخجل والخشية من ذلك النقد الذي سلخها به منذ بضعة أيام .. وان
كان قد أحس ببعض الطمأنينة لأنه توقع أن تمر به مر الكرام .. فلا
شك في أنها لاتعرف عنه سوى اسمه .

وتشاغل بتصفح جريدة أمامه .. ولكنه لم يشعر الا وصاحبه قد
نهض محيا مرحبا .. ورفع بصره فاذا بها تقف وقد علت وجهها ابتسامة
ساحرة .

كانت المرأة الأولى التي التقيا فيها وجهها لوجه .. فما رآها من
قبل الا على الشاشة البيضاء أو على خشبة المسرح ومع ذلك كتب عنها

كما كتب عن سواها الشيء الكثير .. وكال لها من لاذع النقد ومرير الكلام ما هوى بها الى أسفل سافلين ، ولقد فاجأه اللقاء فما كان به شديد لهفة عليه .. فقد كان أكثر ما يخشاه هو لقاء .

فى ليلة عجيبة .. اقتطعها الله من ليالى الجنة .. وأسقطها لأهل لارض فاندست فى لياليهم .. ليلة ظلمها من سماها ليلة .. فهى ليست من الليل فى شيء .. ففى سحرها نور أبهر البصر من نور النهار .. ليلة .. لاينام فيها الا الحمقى والمجانين ..

فى هذه الليلة جلست الشاعرة وحولها جمع من الخلان ، أسكرهم سحر الليل والخمر والهوى .. فانطلقوا فى الرقص والضحك .. ولم يكن بينهم انسان الا غمر التعميم ، وملأته النشوة .. وبدأ الغناء فصمت القوم وأنصتوا .. وراحوا من الطرب فى شبه غيبوبة .. وانتهى الغناء فضج القوم بالتصفيق والهتاف .

ووقف بين القوم فجأة فتى أسمر الوجه ، دقيق التقاطع ، حلو الملامح .. وقد أمسك بقيثاره فى يده .. وأشار باليد الأخرى للقوم أن ينصتوا .. وأنكر القوم الفتى .. فقد كان غريبا مغمورا .. لم يسمع به من قبل فى عالم الغناء .. ولكن الفتى يأبه ، وأصر على أن يغنى .. وبدأ غناؤه بالفعل .. فاذا بالقوم تملكهم هزة ، ويتنفضون ، كما انتفض العصفور بلله القطر .

هذا الفتى لايمكن أن يكون آدميا .. اذا ليس بانسان قط من كان مثله .. وان كان انسانا .. فلاشك أنه ساحر من السحرة .. والا لما ترك القوم هكذا جاحظى الأعين فاغرى الأفواه ، لا حراك بهم ، كأنهم أجساد بلا أرواح أو كأنهم أهل الكهف !

وانتهى من الغناء ، فردّت الروح الى القوم ، وجاشت فيهم
الحياة .. فانطلقت حناجرهم بصيحات الإعجاب ، وتكاكأوا على الفتى
يوسعونه تقديرا واعجابا .

وهذا القوم وسكتت ثائرتهم ، فصاح أحدهم يطالب الفتى أن
يغنيهم بعضا من شعر الشاعرة .. وظهرت الحيرة على الفتى .. وبدا
عليه أنه لم يسمع لا عن الشاعرة ولا عن شعر الشاعرة .

وأصر القوم على طلبهم ، فلقنوا الفتى من نظم الشاعرة أبياتا تسيل
رقة وعذوبة .. وسرعان ما ارتجل الفتى لها لحنا وبدأ فى غنائه .

وخيل الى الشاعرة أنها لاتبصر من حولها .. وأحست لحن الفتى
قد حملها بعيدا الى عالم ملئ بالفتنة والسحر .. عالم لا يحوى من
الكائنات سواهما .. وخيل اليها أنها تسمع همسات تقول :

(هنا لاتقع العين على غيرى ولاغيرك) .

أى عذوبة أضفاها اللحن على الشعر ؟ وأى جمال ، ورونق كساه
إياه ؟ .. أهذا هو حقا ما قالتة هى ؟ لاتظن .. فوالله ما أصاب الشعر
من نفسها عندما قالتة مثقال ذرة مما أصابه عندما غناه الفتى .. لقد
كانت التمثال .. وكان كنافخ الروح فيه .

وانتهى الفتى من الغناء .. وكم ودت لو لم يكن لغنائه من
نهاية .. بل يستمر يغنى ويغنى فلا ينتهى الا وقد انتهى العمر ونضب
معين الحياة .

ومنذ تلك الليلة ، والشاعرة قد غمرتها نشوة لاتكاد تفيق منها ..
لقد وقعت الشاعرة فيما أوقعت الناس فيه .. وذوقت الكأس التى كانت
تكتفى بحملها الى العشاق .. فأسكرتها خمرها .

وأحست الشاعرة لذة الهوى ، وأدركت أن ما نظمته فى الحب
كان بالنسبة لحقيقته قشورا زائفة ، واندفع الفتى الموسيقى الناشئ فى
حبها حبا جنونيا .

ورحل العاشقان الى كوخ الفتى على شاطئ البحر .. ليمرحا
فيه فترة من الوقت بعد أن اتفقا على الزواج .

ووقفت الشاعرة تطل من نافذة الكوخ وقد امتد البحر أمامها فى
زرقة عجيبة ، وصافح نسيمه الرطب وجهها فأحست أن بالحياة حقائق
قد تفوق فى متعتها أجمل الأحلام .. وعجبت لنفسها كيف استطاعت
أن تحيا فيما مضى دون حب .. وكيف كانت تحتل تلك الحياة
الجوفاء الخالية !

وأحست الفتاة بوقع أقدام تدب خلفها متسللة .. وكانت أذناها
لاتخطئان قط صوت أقدام الفتى .. ولكنها لم تتحرك كأنها ما شعرت
بقدومه .. لقد كانت تعرف ماذا سيفعل ، وكانت تتمنى أن يفعله فى
كل آونة .. كان كثيرا ما يتسلل اليها .. فلا تشعر الا وشفته قد مستا
عنقها فى لهفة وشغف فتسرى فى جسدها رعدة لذيدة ، وتتسلل
الشفتان الملتهبتان من العنق الى الذقن الى الفم الى العينين .. فلا تتركها
الا ووجهها قد ألهبته القبل ، وكانت تحس به فى كل مرة عندما يتسلل
خلفها ولكنها كانت دائما تدعى أنها لاتشعر !

وكان كوخ الفتى - على صغره وبساطته - جميلا أنيقا .. وكان
المكان خاليا ألا من بضعة أكواخ صغيرة متشابهة .. وكان الفتى يعيش
مع أمه العجوز الطيبة التى رحبت بقدوم الفتاة الشاعرة أيما ترحيب ..
فقد كانت الفتاة رقيقة لطيفة المعشر .. حلوة الحديث .. فسرعان ما
جذبت اليها قلب العجوز .

وفي ذات يوم نزلت الى حديقة الكوخ فاذا بفتاة شقراء قد
جلست فى زكن الحديقة .. وعندما اقتربت منها الشاعرة وقفت الفتاة
فى احترام شديد وقد بدا عليها الخجل ثم قالت بصوت خفيض :
- لقد كنت انتظر خروجك فى لهفة .. أأست سيدتى
الشاعرة ؟

وفوجئت الشاعرة وبدا عليها الارتباك فقد انغمرت فى حياة
الهوى الجديدة ونسيت كل ما عداها .. حتى أنها شاعرة .. فقد خلا
رأسها من كل شىء الا الحب .. وصمتت لحظة ثم أجابت بهدوء :
- نعم .. انى هى .

وملأ السرور نفس الفتاة الصغيرة الشقراء، وافتر ثغرها عن ابتسامة
ساحرة جذابة ، وقالت فى فرح شديد :

- لقد سمعت اسمك يتردد على فم الخادمة ، ولم يخطر لى
على بال أنك الشاعرة التى أحفظ لها كل بيت قالته .. بل كل كلمة ..
بل كل حرف ، ولم تكن لى أمنية الا لقاءك .. أو حتى رؤيتك عن
بعد .. فتخيلى ياسيدتى أننى أسمع أنك تقطنين بجوارنا .. أى صدفة
عجيبة تلك التى أألت بى الى هذه الناحية ؟ ! اننا لم نقطن هنا الا منذ
يومين ، وكنت لا أرغب فى السكنى فى هذا المكان ، ولكننا لم نجد
سواه .. فنزلنا فيه مكرهين .. فتصوّرى ياسيدتى أننى أسمع بعد ذلك
أنك تنزلين بجوارنا .. أى فرصة سعيدة ..

وكان الحديث يتدفق من فم الفتاة فلم يسمع الشاعرة الا أن
تستمع . ولو قيل لها هذا الكلام فى غير ذلك الوقت لما أحست بأن
هناك من يعادلها غبطة وسعادة .. اذ لم يكن يسرها شىء قدر أن تسمع

ثناء المعجبين بشعرها .. ولكنها الآن .. لم تجد معنى لكلمات الفتاة فلم تسرّها .. ولم تحرك مشاعرها .. لقد كانت زاهدة في كل شيء غدا الحب .. لم تكن ترغب في رؤية الفتاة أو غيرها .. لأنها كانت تود ألا يشغلها شيء عن فتاها المحبوب .

ولم تدر الشاعرة بم تجيب الفتاة وبدأت عليها الحيرة والضيق .. ولكن الفتاة لم تترك لها فرصة للحيرة فقد عاودت الحديث قائلة :

- الواقع ياسيدتى أنه لا شيء يبعث على الغبطة قدر أن يقابل المرء عظماء الناس .. ويجلس اليهم ويحدثهم .

وقطعت الفتاة حديثها ، فقد بدا الفتى في باب الكوخ ، بقوامه الفارغ ، وملامحه الجذابة .. وأبصرت الشاعرة عيني الفتاة تبرقان بالإعجاب ، فأحست بشعور قلبي مبهم ، وسألها الفتاة بسذاجة :

- ترى من يكون ؟

- أنه صاحب الكوخ ، وزوجى فى المستقبل .

واقترب الفتى .. فقدمت اليه الفتاة قائلة :

- جارتكم الجديدة .

وسلم عليها الفتى باسمًا مرحبًا . وقالت الفتاة :

- انه مما يشرف الناحية ياسيدى أن تنزل بها الشاعرة ، وسيسجل لها التاريخ ذلك .

وعلا صوت الفتى مقهقهًا وأجاب :

- لم أكن أظن أنك على هذا القدر من الشهرة .. أو ترين أن أهل هذه الناحية مصابون بداء الشعر ؟

وضاقت الشاعرة ذرعا بمديح الفتاة .. وساءلت نفسها اذا كانت
الفتاة تنوى أن تضع عليها يومها بالاستمرار فى كيل ألفاظ المديح
والإعجاب .. وأحست بشدة بغضها للشعر .. والشعراء .. ووجدت
نفسها تقول للفتاة معذرة :

- كنا ننوى التنزه على الشاطئ .. ففعل مغادرتنا لك
لاتضايك .

وحاولت الشاعرة أن تكون رقيقة فى اعتذارها .. ولكن جملتها
بدت جافة .. حتى دهش الفتى لها بعض الدهشة وبدا على وجه الفتاة
احمرار خجل طفيف .. وأجابت متلعثمة :

- بالعكس يا سيدتى .. انا التى أخشى أن أكون قد ضايقتك
بتطفلى .. ولكن عذرى فى ذلك هو شدة لهفتى الى رؤيتك .
وشدت الفتاة على يديهما ، ورغبت الشاعرة فى أن تعتذر عن
خشونتها فقالت للفتاة :

- أرجو ألا تكفى عن زيارتنا بين آن وآخر .. فان زيارتك
تسعدنا .

وبرقت أسارير الفتاة وغادرتهما مغتبطة .

وانطلق العاشقان الى البحر وبنفس الشاعرة بعض القلق والخوف
والحقد ، والغير .. ولكن عند عودتهما كان كل ما بنفسها قد ذهب
وحل محله الثقة والاطمئنان .

وفى المساء جلس العاشقان ينعمان بأحلام الحب وأمانيه العذبة .
الى أن قال الفتى :

- لقد شغلنا الحب عن الحديث عن شعرك .. لقد أدهشتني الفتاة بما قالت ، فاني لم أسمع منك غير تلك الأبيات التي غنيتها في أول لقاء .

- لاتصدق حديثها .. فأغلب ظني أنها طفلة حمقاء .. ودعنا من حديث الشعر .. فلا أريد أن يشغلنا الآن شيء عن حديث الحب .

وفي اليوم التالي عادت الفتاة في الصباح المبكر وهي تحمل معها رزمة من الورق ، واستقبلها الفتى مرحبا ، فسأله عن الشاعرة .. وأخبرته أنها تود لو تستطيع الفوز بتوقيعها على مجموعة الشعر التي سجلتها في هذه الأوراق .. وبعد هنيهة قدمت الشاعرة فما أن رأت الفتاة حتى عاودها القلق .. وسألها الفتاة في رفق وأدب أن تسمح لها بامضائها .

ودهش الفتى عندما وقع بصره على مجموعة الأوراق المليئة بالشعر .. وأخذ يقلب صفحاتها بين يديه وسأل الشاعرة :

كل هذا من نظمك أنت ؟

- نعم .

وسأله الفتاة في دهشة :

- ألم تقرأ لها شيئا ؟ اني لم أشغف بشيء في الحياة قدر شغفي بشعرها .

وأحست الشاعرة أنها لن تستطيع أن تحتل المزيد من مدح الفتاة .. وكان الجو يبشر بيوم شديد القيلظ فاقترحت الشاعرة أن يذهبا للسباحة في البحر .. ولكن الفتاة صاحت دهشة متعجبة :

- أنت تسبحين ؟

ونظرت اليها الشاعرة نظرتها الى بلهاء أو منجونة وسألتها في هدوء :

ـ وأى غرابة فى ذلك؟ .

ـ شاعرة .. تسبح ! لم أكن أظن أن العظماء يستطيعون السباحة ، اذ يخيل اللى أنه ليس لديهم وقت لذلك .. وانهم لا يغادرون صومعاتهم . التى يتلقون فيها الوحي .

ولاحظ الفتى تبرم الشاعرة بالفتاة وأراد أن يتخذ الموقف فعرض أن يذهبوا جميعا للسباحة . فبدأ على الفتاة الفرح لهذا الاقتراح وانطلقت معهما الى البحر .

وكانت الفتاة ماهرة فى السباحة فاندفعت فى البحر .. واندفع معها الفتى .. وحاولت الشاعرة أن تندفع .. ولكنها شعرت بالعجز والوهن .. وأحست أنها - كما قالت الفتاة - لاتعدو أن تكون شاعرة لا قبل لها بالسباحة .. وعادت الشاعرة الى الشاطئ .. وغاب الفتى والفتاة عن بصرها فى جوف الماء .. ولم تستطع أن تمنع لوعة تسربت الى نفسها .. ووجدت قدمها تسوقانها الى الكوخ فعادت من حيث أتت .

وجلست فى حجرتها حزينة واجمة .. لقد أحست بخوف من الفتاة منذ أن وقع عليها بصرها .. لم تدر ما سبب الخوف . ولكنها لم تستطع أن تمنعه وأحست بأنها مجعدة منهكة ، وغلبها الإعياء فراحت فى اغفاء .

وعندما أفاقت كان الفتى والفتاة قد عادا .. وسمعت صوت الفتاة تتحدث .. فأنصت قليلا .. فاذا بالفتاة تقرأ للفتى أشعارها .

وقامت الشاعرة وأصلحت نفسها فى المرأة .. وكانت تحس
شعور البتأهب لقتال .. القادم على معركة .
وعندما أبصر الفتى الشاعرة نظر إليها نظرة بها بعض الغرابة
وقال :

- لقد حدثتني عنك بما كنت أجهل .. وقرأت لى الكثير من
شعرك .

ورغبت الشاعرة فى أن تنحو بالكلام ناحية أخرى فقالت :
- لقد أصابنى الإجهاد فى البحر .. لأننى فى حاجة الى كثرة
المران .

وردت الفتاة فى رفق ولين :
- لا أظن العظماء فى حاجة الى أن يجيدوا السباحة .

فهمت الشاعرة فى خشونة :
- لا أظن هناك علاقة بين العظمة والسباحة .. ثم شيئاً آخر ..
أرجوك أن تكفى عن الزج بى فى معشر العظماء فما كنت منهم فى
يوم من الأيام .

وانصرفت الفتاة بعد قليل ، وجلست الشاعرة والفتى وحيدتين ،
وأحست الأولى أن بالجو شيئاً لم تعتده .. كأن ستارا قد قام بينهما
وبين الفتى .

قالت : لم لا تتكلم .. انى أجس أن بنفسك شيئاً .. قله أيا
كان .. فهو خير من الصمت .

- انى أسألك نفسى .. ترى هل أصلح لك .. لقد أخفيت عني
حقيقتك .. كنت أعلم أنك تقولين الشعر .. ولكنى لم أعلم قط أن لك

دواويننا يحفظها الناس عن ظهر قلب .. ما ظننت أنك عظيمة بهذا
القدر .. ولكنى أتساءل الآن .. أ يصلح هذا الفتى الموسيقى الناشئ
الذى لم يشق طريقه فى الحياة بعد لهذه الشاعرة العظيمة المتربعة على
قمة المجد .. انى لا أكره شيئاً فى الحياة قدر أن أكون الشريك
الأضعف أو الأقل قدرا .. خير لنا أن ننتظر قليلا حتى أسير فى الطريق ..
ثم أصبح نذاً لك .

وأحست الشاعرة أن قلبها يعصره الألم ، وأحست بالدموع
تترقق فى عينيها وقالت :

— اذا كان الشعر هو كل ما فى الأمر .. فأعدك ألا أقول الشعر
أبدا .

— هذا أسوأ ما فى الأمر .. فانى سأكون بذلك حجر عثرة فى
سبيلك .

ومرّت الأيام بعد ذلك ثقيلة مملة .. لم يحدث بينهما شيء ..
سوى أن تغير كل شيء ، ولم يفعل الفتى ما يحزنها ولكن لم يك يفعل
كذلك أى شيء .. لقد خبا الشوق وذهبت اللفة .. لقد انطفأت ثورة
الحب التى كانت تتأجج بينهما .

وأخيرا أدركت الشاعرة أنه لم يعد هناك أمل فى نعيم أو رجاء
فى هناء ، وأن الأيام تباعد بينهما رويدا رويدا .. فقررت الرحيل ..
وذا صبح أنبأته بعزمها . وفهم الفتى فأطرق برأسه برهة . ولم يجب
بشيء .

وأعدت الشاعرة حقائبها .

وهمت بمغادرة الدار .. فاذا بالفتاة تجلس فى الحديقة كما رأتها
أول مرة ، ورفعت الفتاة رأسها وبدأت عليها أمارات الدهشة والحزن
وقالت :

- أبهذه السرعة ستغادريننا ؟ كم أود لو تبقين بيننا مدة أطول ،
ولكن هكذا العظماء دائما سريعو الملل والسأم .

وحدجتها الشاعرة بنظرة فاحصة .. فبدأ لها فى الفتاة شىء لم
تتنبه اليه من قبل .. شىء جعل الدم يغلى فى عروقها .. لقد لمحت
فى عيني الفتاة نظرات تهكم وسخرية وانتصار .. وبدأت لها الحقيقة
لأول مرة جليلة واضحة .. لقد كانت لعبة فى يد الفتاة التى ظنتها ساذجة
حمقاء .. سلبتها فتاها بطريقة عجيبة لم تخطر لها على بال قط .. لقد
أحبت الفتى ووجدت أن الشاعرة لا عيب فيها ولا نقص تستطيع استغلاله
لإبعاد الفتى عنها .. فلم تجد خيرا من الطريقة التى اتبعتها .. يا لها من
شيطانة ماهرة .
صاحت الفتاة :

- أيتها الماهرة الخبيثة كفى هزلا وسخرية .. لقد حاولت أن
تفهميه أن الفرق بيننا شاسع بعيد ، وأن أحدهما فى القمة والآخر فى
الحضيض ، وغرست فى نفسه أن أحدهما لا يصلح للآخر كى تأخذه
لنفسك .. لقد ظننتك حمقاء ، ولكن كنت أنا الحمقاء .

وبدا الفتى فى تلك اللحظة على الباب فصاحت الشاعرة باكية :

- انى أمقتكما !

وانطلقت تعدو الى الشاطئ هاربة من الكوخ .. وهناك استقرت
لحظة على احدى صخور الشاطئ وقد تلاحت أنفاسها ، وبعد برهة

قصيرة خيل اليها أنها تسمع وقع أقدام خلعها فأدركت أنه صدى الذكرى
الماضية .. ولكنها أحست فجأة بشفتين على عنقها وانتقلت الشفتان
الى العينين المبللتين. بالدموع واستقرتا أخيرا على الشفتين ، ولو خيرت
الشاعرة بين لذة هذه اللحظة ، وبين العمر كله ، لاختارت تلك
اللحظة .. لقد فهم الفتى كل شيء ولم يعد يخشى شيئا ، وصمم أن
يبلغ الى قمة المجد حتى يتساويا وطلب منها أن تنشده بعضا من
شعرها .. فغناه لها .. وراحا فى نشوة من الهوى والشعر والغناء .

★ ★ ★

ليكن لي أمنيّة

لم تكن لي أمنيّة في ذلك الوقت الا السكنى في ذلك ، البيت (المسكون) .. ولم يكن ذلك حبا منى في الجن والأرواح التي كانوا يدعون أنها تسكنه .. ولا كان عن رغبة في مشاكستها ومعاكستها .. بل كان كل ما يستهوينى فيه ، هو شجرة التوت العالية التي تطل بفروعها المورقة من الحديقة الصامتة المتوحشة .

كنت وقتئذ في الثانية عشرة .. وكنا نمر على الدار المسكونة كل صباح عند ذهابنا الى المدرسة .. ولم يكن يلد لنا شيء قدر أن نمد أعناقنا الصغيرة من خلال قضبان السور الحديدى لنستطيع ما وراءه من أشجار متكاثفة متعانقة .

وكانت الحديقة تلبس لنا أنها بحر خضم لا تكاد تبلغ العين مداه .. وكانت عقولنا الصغيرة تتخيلها مليئة بالسحر والأسرار .

وما زلت أذكر تلك الأيام التي كنا نستيقظ فيها وضوء الشمس لم يظهر بعد . فنتسلل من دورنا الخفية لنذهب الى الدار المسكونة قبل

أن يستيقظ حارسها الأسود العجوز .. فتتسلق السور ونقطف أوراق التوت الذى كنا نحتاج اليه لتغذية دود القز الذى كانت تستهويننا تربيته . وكان بيننا وبين الحارس عم محمد ، وهرأوته ، ما صنع الحداد ، وانى لأعجب الآن ماذا كان يود ذلك الأيلة العجوز أن يصنع بورق التوت ، ولأى أمر كان يحرمه علينا ويجرى وراءنا بهرأوته صاحبا مهددا عندما يضبطنا متلبسين بجريمة الشعلقة على السور .

وتطوّر الأمر من رغبتنا فى قطف ورق التوت الى رغبتنا فى معاكسة عم محمد واستثارة غضبه .. والعيث به ، والسخرية منه . والواقع أننا قد برعنا فى هذا الأمر وتفنتا فيه . وانى لأذكر ذلك اليوم الذى وطلدنا فيه النية على أن نقتحم الحديقة .. ونرتع فيها كما نشاء .. ونستكشف خباياها ونستطلع أسرارها .. وذهبنا الى الدار ومع كل منا هرأوة وقد صممنا على ألا نفر من عم محمد .. بل نواجهه مواجهة الند للند .. ونطلب اليه أن يسمح لنا بالدخول ، فان رضى كان بها ، وان أبى فهو الجانى على نفسه .. وهو المسئول عما سيحدث له نتيجة العلقه الساخنة التى صممنا على أن نعطيها له .

وعندما وصلنا الى الدار لم نجد صاحبنا على بابها .. ووجدنا الباب غير مغلق .. وناديناه فلم يجبنا أحد .. وخشيننا أن تسللنا أن يكون الرجل قد وضع لنا كمينا ، فترددنا برهة ، ولكن أحدنا وهو محمود .. (أدى بولو) (هكذا كان يسمى نفسه تشبيها بأحد أبطال السينما) كان أكثرنا جرأة وأشدنا عفرتة .. فاقترحم الباب بخطوات ثابتة .. واختفى داخل الحديقة .

وبعد برهة قصيرة سمعنا منه صفارة طويلة ورأيناه قد أقبل فى توده وقد وضع يديه فى جيوبه كأنه يسير فى حديقة الخاصة .. ثم أشار إلينا بكبرياء أنه يمكننا الدخول .

ولكننا ترددنا وسألناه فى أصوات هامة :

- وعم محمد ؟

- لقد سجنته .. وكفى الله المؤمنين القتال .

ثم علمنا منه أنه وجدته منهمكا فى الصلاة فى حجرته .. فما كان منه الا أن أغلق الباب عليه بالمفتاح ووضع المفتاح فى جيبيه ، وترك الرجل يصلى فى هدوء ما شاء له أن يصلى .

وكان يوما مشهودا من الأيام التى لايجود بمثلها الدهر ، أو هكذا هو على الأقل ما كنا نظن وقتئذ .

هذه الحديقة الساحرة العجيبة التى كنا ننتشى لمجرد أن نمد فيها رؤوسنا من بين قضبان السور الحديدى .. قد أضحت اليوم ملكا خاصا لنا لا يشاركنا فيها أحد .. وعم محمد عدونا اللدود .. قد أضحى حبيسا مع هراوته .. لا يملك كلاهما لنا ضرا ولا أذى .

وكان الوقت ربيعا ، وكل ما فى الحديقة ملون مزدهر وأشجار المشمش قد رصعت بالزهور البيضاء كأنها فصوص الماس ، وأزهار البرتقال قد تفتحت وفاح منها العبير وانتشر الشذى ، والنباتات كلها تكاد تتفجر من فرط الحياة .

وانطلقنا فى أنحاء الحديقة .. وتسلقنا أشجارها ، وقطفنا الزهور والثمار ، وأغرقنا الحديقة بالمياه ، وعبثنا ما شاءت لنا طفولتنا أن نعبث ونمرح ، ومثلنا كل أدوار البطولة التى رأيناها على الشاشة البيضاء من (طرزان) و (توم ميكس) .

وأخيرا .. وبعد أن أعيانا التعب .. وبعد أن استنفذنا كل ما نملك من قوى فى الجرى والقفز .. وبعد أن انتهت كل ما لدينا من وسائل

اللعب .. وبعد أن قلبنا أعلى الحديقة أسفلها ، وأسفلها عاليها ، وشققنا في أرضها (حوض البحر الأبيض) و (نهر النيل) .. ورفعنا فيها (جبالا الهملايا) ، و (هضبة التبت) ، وصنعنا من أفرع الشجر سفنا ومعاير وأكواخا وقصورا .. ولم نترك زهرة واحدة باقية على فروعها ، ولا طيرا واحدا هادئا في وكره .. أخيرا .. وبعد كل هذا فكرنا في العودة الى دورتنا .

وهنا وجدنا أنفسنا في مأذق حرج . ماذا نصنع بعم محمد ؟ لم يكن أمامنا الا أحد أمرين : اما أن نتركه في سجنه فيموت جوعا .. واما أن نفتح له فيميتنا ضربا .

وفيما نحن حيارى .. رأينا (ادى بولو) يتركنا ويعدو الى آخر الحديقة ثم يعود ومعه جبل طويل ورأيناه يخرج المفتاح من جيبه فيربطه في طرف الجبل ، ويعطيه لأحدنا ويأمره بأن يمسك به جيدا .. ثم يسير هو بالطرف الآخر فيذهب الى حجرة الرجل .

وطرق الباب بيده طرقة خفيفة ونادى :

- عم محمد .

وهنا سمعنا صياحا وضجيجا كأن في الحجرة ثورا هائجا وعلت من الحجرة ألفاظ السباب .. ووصلت الى آذاننا كلمات التهديد والوعيد ، فشعرنا بالفزع والخوف .. وانتهر (ادى بولو) لحظة صمت من الرجل فصاح به :

- اسمع يا عم محمد .. اذا كنت تنوى أن تستمر على هذا الهيجان والحمق فلن نكون مسئولين اذا تركناك تموت جوعا في حجرتك كالكلب الغيبى .. واذا كنت تريد الحياة فاسمع اللى .

وسكن الرجل وأصغى .. فاستمر صاحبنا فى الحديث :

- سأعطيك المفتاح من أسفل الباب .. ولكن ليس مباشرة حتى لا تفتح الباب المفتاح وتلاحقنا بهراوتك ، بل سأعطيك طرف حبل ربط المفتاح فى آخره .. فما عليك لكى تأخذ المفتاح الا أن تستمر . هي جذب الحبل .. حتى يصل اليك المفتاح .

ثم مّد يده فأدخل طرف الحبل من أسفل الباب واتجهنا الى باب الحديقة ومعنا الحبل الذى ربط به المفتاح وأخذ الرجل يجذب الحبل من ناحية ، ونحن من ناحية فما وصلنا الى الباب حتى كان الحبل قد امتد بطوله بين الحجرة وباب الحديقة ، فألقينا المفتاح ، وولينا القرار . وعدنا الى دورنا .. كأننا لم نرتكب أمرا اذا ، ولا فعلا نكرا ، وتسلمت من الباب واتجهت رأسا الى الحمام حتى أزيل ما علق بى من طين وأوساخ .

وذهبت الى حجرة الأكل ، ودار الحديث بين أبى وأمى عن أن البيت الذى نقطنه لم يعد صالحا لنا ، وأنه يفكر فى الانتقال الى بيت أوسع ، وأنه لا يدرى ماذا يمنعنا من أن نستأجر البيت الذى يدعى الناس أنه (مسكون) فليس هناك فى الناحية بيت فى مثل فخامته ولا ضالة أجره .

وكدت أقفز من مكانى لفرط الفرح وصحت بأبى :
- أقسم لك أنه ليس مسكونا ، وأن الأمر لا يزيد على اشاعة كاذبة .

وشعرت بيد أمى تمتد من خلف المنضدة ، فتقرضنى قرصة لاذعة فى اللبايب ، وتنهانى زاجرة ثائرة :

- لقد قلت لك ألا تتدخل فيما لايعنيك .. كل وانت ساكت .
ثم وجهت الحديث الى أبى ، وشرر الغضب يتطاير من عينيها :
- لم أر فى حياتى قط من هو أسخف منك الا ولدك ولا من
ولدك الا أباه .. أتريد منى أن أقطن فى هذا البيت الموحش المخيف ،
ان السكنى فى المقابر خير عندى وأفضل !

ولكنى أبى - بارك الله فيه - استطاع أن يقنع المرأة العنيدة بأن
تذهب لترى البيت ، فقد يتغير رأيها عندما تراه .

ولو أخبرونى وقتئذ أننى قد صرت امبراطورا للعالم لما كانت
فرحتى بأشد منها عند ما عادت أُمى وأخبرتنا أنها قد وافقت على
الانتقال الى البيت (المسكون) .

وكان فرحى فى الواقع قد بلغ حد الجنون ، حتى لقد رحلت
أرقص فى الحجرات من فرط الطرب .. من كان يظن هذا ؟

هذه الحديقة الواسعة ستصبح حديقتنا وشجرة التوت ستصبح
كلها ملكا لى .. وسأدخل صبية الناحية ، يأخذون من ورقها ما
شاءوا .. وهم آمنون مطمئنون من شر عم محمد .

ولم يكد يخطر على بالى عم محمد حتى قفزت من مكانى كأن
بى مسا من جنون ، وصحت أناطب نفسى :

- عم محمد ! (وقعت والا الهوى رماك) ، من كان يتخيل أن
هذا الحيوان الأسود العجوز ، الذى طالما نالنى من هراوته الشيء
الكثير .. سيصبح تحت رحمتى .. لقد أصبحت من الآن سيده ، سأثار
منه لكل أطفال الناحية .

وانتقلنا الى دارنا الجديد ، وكان فرحتنا بها لا يقدر ، فقد كانت
الدار فاخرة حقا .. وكانت بها كل وسائل الراحة والرفاهية .. وكان
من السخف أن نترك مثل هذه الدار طوال تلك المدة الطويلة . لا لشيء
الا لمجرد اشاعات كاذبة أنها مسكونة بالجن-والأرواح .

وكان يبدو على عم محمد أنه لم يكن مرتاحا لسكنانا فقد
أخرجناه من مكمنه وأزعجناه في مأمنه ، وحرمانه من هدوئه الذي اعتاده
وسط الدار الفسيحة ، الخاوية على عروشها .

وأزعجه أكثر من ذلك وحز في نفسه أن هؤلاء الصبية الذين كانوا
يخشون جانبه ، ويفزعون من رؤيته .. قد باتوا يأمرونه فيذعن للأمر ،
ويزجرونه فيزدجر ... وقد سلطانه عليهم وعلى الدار .. فاستباحوا
حماها .. وانتهكوا حرمتها .

ومرت الأيام ونحن نرتع في الدار ونمرح ، حتى حدث ذات ليلة
ما روعنا وملاً نفوسنا فزعنا .

سمعنا صوت أنين بدأ خافتا ، ثم أخذ يعلو رويدا .. رويدا ، ثم
انقطع فجأة .. وفي الصباح نقب أبي في أنحاء الدار عله يعثر على
مصدر الأنين ، فقد يكون قطعة مريضة أو كلبا جريحا ، ولكنه لم يعثر
على شيء .

وفي الليلة التالية سمعنا الأنين نفسه ، وزاد عليه بعض الصراخ
الذي جعلنا نكمش في أغظيتنا ، وجعلت أُمي تقسم أن تترك الدار عندما
تشرق الشمس .

وفي الصباح أرسل أبي في طلب عم محمد وسأله عن سر ذلك
الأنين والصراخ ، فأطرق الرجل برهة ثم أجاب :

- انه صوت الفتاة السجينة .

وسأله فى دهشة :

- الفتاة السجينة ؟ هنا فى الدار فتاة سجينة ؟

وهزَّ الرجل رأسه ببساطة علامة الموافقة ، فصاح به أبى فى

سخرية :

- ومن الذى أجبرها على أن تظل سجينة حتى الآن ؟ ولم
لا تنطلق الى حيث تشاء ؟ وفى أى حجرة تنزل هذه السجينة الحمقاء ؟

- انها فى البدروم يا سيدى .. وقد سمعت قصتها من أبى الذى
سمعها من جدى .. لقد قال لى هذه الدار كان يملكها فى غابر الزمان
أمير كريم المحتد .. عريق المنبت وسيم الطلعة ، متين البنيان ، وكان
يعيش فى الدار مع أمه وأخته .. وكانت أمه تود أن تزوج ابنها باحدى
الأميرات ولم يكن لدى الأمير اعتراض على ذلك . فقد كان خالى
القلب ، وسارت الأمور على خير حال .. حتى حدث ذات مرة أن
صدمت عربة الأمير فتاة فقيرة فى عرض الطريق ، فجرحت الفتاة ورق
الأمير لحالها فحملها الى بيتها وأحضر لها طبيباً وداوم على زيارتها
والعناية بها .

وبرأت الفتاة من جرحها .. ولكنها وجدت نفسها قد أصيبت
بجرح آخر أعمق أثراً ، كان من العسير عليها شفاؤه اذ كان جرحاً فى
القلب لا فى الجسد ، فقد أحبت الفتاة الأمير حباً يائساً ووجدت نفسها
تتخبط فى هوى لا أمل فيه .

ووجدت الفتاة أن الأمير لم يكف عن زيارتها حتى بعد برئها ،
وأن عطفه قد ازداد عن ذى قبل .. وأخيراً اتضح للفتاة ان الأمير قد
بات هو الآخر صبا مولعا .

واندفع الأمير في تيار الهوى فتزوج الفتاة وحملها الى الدار ..
وقدمها الى أخته . فأصابهما الدهول ، ولكنهما تمالكتا نفسيهما ،
وتصنعتا الترحيب بها .

وأحنق الأم أن يتزوج ابنها مثل هذه الفتاة الفقيرة .. ولم تطق
الفتاتان وأمهما أن تصبح الفتاة الوضيعة الأصل ربة الدار .. فعقدن النية
على التخلص منها بأي حال .

وفي ذات يوم غاب الأمير عن الدار في رحلة تستغرق بضعة أيام ،
فاستدرجن الفتاة الى القبور بالبدروم ودفعن بها الى داخله وتركنها
حبيسة فيه .

وظلت الفتاة في القبو مذهولة مشدوهة ، ثم بدأ الجوع يمزق
أحشاءها ، فأخذت تستنجد وتستغيث ، وعلا أنينها وصياحها حتى يَح
منها الصوت وارتمت جثة هامدة .

وعاد الأمير من رحلته فأنبأوه أنها فرت هاربة .. فجبن الرجل ..
وترك البيت هائما .. هذه هي القصة يا سيدى .. ومن يومها والأين
والصياح لا ينقطعان أبدا من القبو .

وانتهى حديث عم محمد وبدا علينا التأثر واستقر الرأي على أن
نغادر الدار بمجرد العثور على دار أخرى .

واجتمعت بأصدقائي من الصبية ، فقصصت عليهم النبأ ،
فأحزنهم أن يحرموا مرة ثانية من الحديقة .. وأن يعود (عم محمد) الى
مطاردتهم بهراوته .

وانصرف الجميع .. ولكن محمود أو (ادى بولو) لم ينصرف ..
ورأيته يقترب منى ويهمس في أذني أنه يخشى أن يكون في الأمر دسيسة

من عم محمد يراد بها اخراجنا من البيت .. ثم اتفق معي على أن تتسلل ليلاً لمراقبة عم محمد والتقينا في الليل واختبأنا خلف شجرة أمام حجرة عم محمد وأخذنا ننتظر .

ولم تمض برهة قصيرة .. حتى رأينا الرجل قد خرج من حجرته يمينه ويساره .. ثم بدأ يخرج ذلك الأنين والصراخ الذى كان يملؤنا فزعاً وهلعاً .

وعاد الرجل الى الحجرة ، وطلب منى صاحبى ألا أخبر أحداً بما يفعله عجوز النحس .. وأن أقابله فى الليلة التالية ، واتفق معي على الدور الذى سنقوم به .

وفى الليلة التالية سبقنا الرجل الى القبو ، وانتظرناه هناك قابعين فى الظلمة ، وعندما سمعنا وقع أقدامه تقترب بدأ صاحبى يصدر من فمه أنينا يشبه ذلك الذى يصدره العجوز ، فوقف مكانه متسمرا لا حراك به وقد عقد الفرع لسانه ، وبدأت أنا أتكلم فى صوت خشن مقلداً صوت الرجال :

- ماذا يكيك يافاتتى ؟

وردّ صاحبى مقلداً صوت الفتاة :

- لقد سجنونى فى القبو ، وتركونى بلا طعام ، وأشعر بالجوع يلهب أحشائى .

- اطمئنى يا حبيبتى .. فانى سأحضر لك طعاماً شهياً .. سأحضر لك لحمة رأس أسود عجوز ، ولكنها بلا مخ .. لأن صاحبها أحمق شرير .

ولم يكمل صاحبي حديثه ، فقد سمعنا عم محمد يصرخ صرخة مدوية ، ورأيناه يولى الأدبار كأن به مسأ من شيطان رجيم .

وفى الصباح لم نر لعم محمد أثرا فى حجراته .. فقد فر من البيت .. ولم نعد بعد ذلك نسمع أنين الليل وعويله ، ولم يعد أحد يدعى بعد ذلك أن البيت مسكون .. اللهم الا رجلا واحدا .. كان يؤمن فى قرارة نفسه أن البيت مسكون حقا .. ولم يك يجسر أن يقترب منه قط . وذلك هو عم محمد .

★ ★ ★

عَفْرِ بَشَرِ الدِّلِ

كان الوقت ابان الظهيرة .. وقد أظلمتني من وهج الشمس شجرة عتيقة كأنها والزمن صنوان .. وجلس العجوز أمامي يسبح بمسبحة في يده ويتمتم بألفاظ لعله يستغفر ربه .. وبدا البيت أمامي كأنه قلعة ضخمة من قلاع العصور الوسطى .. فرددت لو استطعت أن أخترق بىصرى تلك السحب المسدلة من الجدران الضخمة حتى أبصر ما بداخلها من الأحاجى والأسرار .. وقلت للعجوز أستحثة على الكلام :
- تقول ان هذه الدار لم يقطنها انسى قط ؟ أتقصد بذلك أنه قد يكون بها سكان من نوع آخر ؟

- نعم يابنى .. لقد استبدلت الدار سكانا بسكان .. لقد كانت الدار تعج بالحياة .. فأصبحت تضج بالصمت والعدم ، ولو أنى لم أرها قط الا فى هذا الصمت والعدم .. فمنذ أن وعيت على هذه الدنيا ، وأنا أبصرها كما تبصرها الآن .. موحشة كثية .. مقفرة مظلمة .. ولكن أبى قد أنبأنى بقصتها التى سمعها عن أبيه عن جده .. فقد توارثت

عائلتنا الحراسة فى هذه الدار جيلا بعد جيل .. حتى أصبحنا لازمة من لوازمها كهذه الشجرة التى تظلنا الآن ..

تبدأ قصة هذه الدار فى غابر الزمن عندما كانت قصرا لحاكم المدينة وكان رجلا حكيما عادلا .. وكانت قلوب الرعية تفيض بحبه والولاء له .. ولكن البلاد كانت ترزح فى ذلك الوقت تحت نير سلطان أجنبي .. وكان على حاكم البلدة أن يؤدى له جزية سنوية فادحة .. ففى احدى السنين طلب منه السلطان أن يضاعف الجزية ، ووجد الحاكم أن ذلك افراط فى الحيف والظلم .. فرفض أن يعجب السلطان الى مطلبه وأعلن العصيان .

وكان السلطان فتى طائشا أحرق فتملكه الغضب وأمر بأن يجهز جيشا لتأديب ذلك الحاكم العاصى .

وبدأ الحاكم يكوّن جيشا من أهل المدينة لصد الجيش الغازى .. وسرعان ما احتشد أهل المدينة وقد تناولوا كل ما استطاعت أن تصل اليه أيديهم من أسلحة وهراوات ، وفؤوس .. واصطدم جيش الطغاة بأهل المدينة البواسل ففتك بهم فتكا شديدا .. وتحصن الحاكم وبعض من جنوده فى هذه الدار .. فلم تطل مقاومتهم الا فترة وجيزة .. استطاع الغزاة أن يقتحموا بعدها الدار فسقوا الحاكم ورجاله كأسا دهاقا ومزقوا جثثهم اربا اربا .

وسيقت النساء سبايا .. وبدأ السلطان الأحرق يستعرضهن واحدة واحدة .. وكانت أولاهن ابنة الحاكم ، فأخذ الفتى بجمالها .. ولم يستطيع أن يقاوم بريق عينيها أو سحر شفيتها ، ولم يحاول أن يرى غيرها من السبايا .. بل أمر حاشيته وقواده بأن ينصرفوا عنه ويتركوه مع الفتاة .

وقع السلطان فى شرك هواها وحاول أن يستميلها اليه . ولكن قلبها كان يفيض بالبغض والكراهية له .. ولم يجتد اغراءه اياها بالزواج .. وبأن تكون ملكة متوجة ، فقد استمرت تلقاه فى جمود كأنها جسد بلا روح .. وأخيرا نفذ صبره .. فصمم على أن يتزع منها الحب انتزاعا .. فأمر بأن توضع قى قبر فى أسفل الدار .. وأحضرت أحد البنائين وأمره بأن يقيم جدارا يسد به باب القبر ، فلا يترك منه الا فتحة ضيقة .. وأنبا الفتاة أنه سيدفنها حية فى هذا القبر أن استمرت على ازدراءها اياه واحتقارها له .. وأخبرها أنه سيترك لها فرصة يوم لتبته بما استقر عليه رأيها .. وأن عليها الآن أن تختار بين حبه وبين هذه الميتة المخيفة .

وفى اليوم التالى نزل الفتى الى القبر وسألها : اما زلت مصرّة على نفورك ؟ .. ولكن الفتاة استنكفت أن تجيبه .. فما كان من الطاغية الا أن سد الفتحة الباقية من الجدار .. وترك الفتاة حية فى قبرها .

وفى نفس اليوم اشتعلت بين جنود الفتى فتنة فثاروا عليه وهاجموا القصر ، فحاول تهدئتهم ، ولكن أحد الجنود طعنه فى صدره فخر الى الأرض صريعا ، وأحس أن نهايته قد أخذت تدنو وشعر بالندم يخزه على حبسه الفتاة حية فى ذلك القبر .. وبدأ يتحامل على نفسه فأمسك بفأس وأخذ يزحف بها نحو القبر حتى وصل الى ذلك الجدار الذى أقامه ، وهم برفع الفأس ليثقب الجدار ، ولكن قواه خائته فهوى الى الأرض جثة هامدة .. وبقيت الفتاة حبيسة فى قبرها .. وبعد بضعة أيام ثار أهل المدينة فطردوا جيش الغزاة . واستردوا دار الحاكم ولكن أحدا لم يجسر أن يقطنها أو يزاحم هذين الروحين اللذين يأبيان أن يفارقاها .. فاحداهما حبيسة فى القبر الأخرى حائرة اما الجدار تحاول اخراجها .

وصمت العجوز فكدت أنفجر من فرط الضحك .. يا للأقصوبة
المتعة ! أهذا هو ما يخيف الناس من سكنى الدار ؛ روح سجيئة فى
القبو وروح تحاول هدم الجدار .. أمن أجل هذه الخرافة المضحكة التى
يروىها العجوز الأحمق تبقى الدار مهجورة مقفرة طوال تلك السنين ؟ ..
وإذا كانت تلك العقول الضيقة قد صدقت هذه الأسطورة الركيكة ..
فلم لا يحاول أحدهم أن يدخل الدار فيهدم بنفسه ذلك الجدار ويطلق
الروحين الحائرين الى حال سبيلهما ؟

ونظر الى العجوز نظرتة الى طفل أبله .. ثم هز رأسه وقال فى
هدوء :

- يا بنى . كف عن السخرية فما رويت لك الا ما سمعت .
وما أظن أن أبى قد روى لى الكذب .. وعلى أية حال ، فهب أن القصة
كلها محض خرافة .. فماذا ترى فى أولئك الذين سخرُوا منها كم
سخرت أنت ، وحاولوا أن يقطنوها ، فلم تمض بضعة أيام الا وقد رزئوا
بموت واحد منهم ، فعجلوا بالفرار منها وتركوا الدار بتحفها الثمينة
ورياشها الفخمة .. دون أن يجسروا على العودة إليها قط .

- أما انهم رزئوا بموت واحد منهم .. فلا أظن الدار لها دخل
فى ذلك الأمر .. الا اذا كنت تظن أنهم مخلصون فى الحياة .. وأما
أنه مات بعد بضعة أيام من سكنهم الدار فالمسألة لاتعدو أن تكون
مصادفة .

وتشعب بى الحديث مع العجوز فى نواح مختلفة حتى أحسست
بقرصة الجوع تلذع أحشائى ، فعدت أدراجى الى الفندق الذى أنزل
فيه والذى يبعد كثيرا عن الدار .

ولم يكد الظلام يسدل ستوره حتى وجدتنى أعود أدراجى الى الدار .. لقد كنت فى لهفة الى التسلل اليها والتجول فى حجراتها ورؤية ما بها من تحف مهجورة معطلة ، ولم يكن يلوح لى أى أثر قريب أو بعيد لتلك الأرواح التى حدثنى عنها العجوز فما كانت أو من قط فى أية لحظة من لحظات حياتى أن هناك عفارىت أو شياطين أو ما يشابههما ، وما كنت لأشغل ذهنى بالتفكير فيما هو ليس بكائن الا فى الأوهام والأحلام .

ولم تكن هناك أية صعوبة فى التسلل الى الدار ، فالعجوز كثير النوم بطيء الحس .. وهو لا يخطر لباله قط أن هناك من يجرؤ على الاقتراب من الدار .. بل اقتحامها والتهجم على سكانها من الأرواح والأشباح .

وقفزت على السور .. ثم عالجت احدى النوافذ بفأس عثرت عليها فى أرض الحديقة فلم أجد صعوبة فى فتحها .. وبعد هنيهة وجدت نفسى فى حجرة موحشة ، شديدة الظلمة ، فأشعلت عود ثقاب تبينت على ضوءه بضع شموع فى ركن الغرفة فأسرعت باشعالها .. وسرت أتجول فى الدار .. فاذا بها دار رحبة فسيحة مليئة بالتحف القيمة والتماثيل والصور .. ولم أجد بها قط ما يخيف أو يثير الذعر .. وأخذت أفكر فى سخف الإنسان الذى يهجر مثل هذه الدار خوفا من أرواح مزعومة .. واستعدت فى رأسى تلك القصة التى سمعتها من العجوز . فوجدتنى أضحك مرة أخرى . ولكنى توقفت عن الضحك فجأة .. ا سمعت حركة خفيفة .. وخيل لى أن هناك وقع أقدام تقترب . فخشيت أن يكون الحارس قد تنبه من غفلته وأبصر بضوء الشموع يد من خلال النوافذ فدخل الدار يستجلى الأمر .. وخشيت أن يظن

العجوز لصا قد اقتحم الدار يبغي السرقة .. فيصبح مستنجدا بأهل الناحية .. وأقع أنا فى مأزق الله أعلم بنهايته .

ولم أدر كيف أجيب اذا ما سئلت عن سبب وجودى فى ذلك الوقت من الليل فى هذه الدار الخاوية .

وتخيلت نفسى أعدو وخلفى كل من هب ودب من صبية ورجال .. ثم رأيتنى قد وقعت فى أيديهم ، فتهافتوا على ضربى ولكمى كأنهم كانوا ينتظروننى بفارغ الصبر .

ولم يأخذ منى التفكير فى هذا المنظر البغيض الا ثوانى معدودات برق لى على أثرها خاطر وجدت فيه خير منقذ من هذا المأزق الحرج .. بل وجدت فيه تسلية وحبورا .

هذا العجوز الأحمق الذى أسمع وقع أقدامه تقترب والذى سيضبطنى بعد لحظات متلبسا بجريمة السرقة .. ليس هناك أسهل من خداعه .. فلا شك أنه يؤمن ايمانا قويا بوجود أرواح فى الدار .. فلم لا أكون أنا أحد هذه الأرواح فأجعله يفر أمامى مرتعدا ويعود أدراجه من حيث أتى .

وفى لمحة عين قعدت مكانى وأمسكت بالفأس التى فتحت بها النافذة ، وجذبت غطاء أبيض فلففت به جسدى من قمة رأسى الى أخمص قدمى وأطفأت الشموع ووقفت أنتظر ..

وساد السكون .. فلم أعد أسمع بعد ذلك وقع الأقدام التى كانت تقترب .. وخيل لى أن العجوز قد عاد أدراجه وكفى الله المؤمنين القتال .. فأحسست بالضيق .. وتحولت رغبتى من الفرار والنجاة .. الى رغبة فى الهزل والمزاح .. ووجدت أن هذه الفرصة - فرصة أن

يكون المرء عفريتاً أو جنياً أو روحاً - قد لاتسبح لى مرة أخرى فى هذه الحياة .. فخطوت بضع خطوات فى الظلام ، ودلفت الى الحجرة التى تخيلت أنى سمعت صوت الأقدام يصدر من ناحيتها .. وقد أمسكت بالفأس وجمعت أطراف الملاءة البيضاء حول جسدى فلم يبد منها الا عيناي .. وانتظرت أن أرى العجوز وقد تسمر فى مكانه من فرط الفزع .

ولكنى بدلا من أن أرى العجوز .. رأيت عفريتاً قد اتشح بالبياض وملكتنى الحيرة فلم أدر كيف أبدا الحديث .

وأخيرا تحدثت العفريت ليسألنى من أكون .. فاذا بصوته مليء بنعومة ورقة ، من النوع اللطيف .. فأدركت أنها عفريته .. واطمأن قلبى قليلا .. ورأيتنى أعود بذهنى دون أن أدري فأستعيد قصة العجوز .. وقلت لنفسى ان صاحبتنا لابد وأن تكون الفتاة سجيئة القبو .. وأحسست برجفة تسرى فى بدنى فقد خشيت أن تظننى الفتى الذى سجنها فيكون نصيبى منها عداوة لا أستحقها .. فأسرعت لنفى الشبهات عن نفسى ولأبين لها حسن نيتى .

قلت : الظاهر أنى تأخرت قليلا .. فقد كنت فى طريقى الى القبور لأطلق سراح سيدتى ..

وسادت فترة صمت قبل أن تقول :

- أبعد هذه القرون التى مضت .. جئت الآن تفكر فى اطلاق

سراحي ؟

يا للسخرية ! إذن فهذه العفريته البلهاء تظننى عفريتاً ! وا
ماظننت قط أن العفاريث بمثل هذه السذاجة !

واقتربت من الشبح الأبيض وجثوث على ركبتى وقلت هاتفا :
هذه القرون التى ولت .. لم تزدنى الا لهيبا .

ونخيل الى أن أبصر ابتسامة سخرية تلمع فى عيني العفريتة .. ثم
سمعتها تقاطعنى بصوت يغلبه الضحك : - ضم الملاءة قليلا الى
جسدك .. فالعفاريت لا يلبسون البنطلون .

ونظرت الى أسفل فاذا بالملاءة قد انحسرت عن ركبتى فظهر
البنطلون .

يا للكارثة .. لقد اكتشفت الخبيثة كذبتى .. وشعرت بالحيرة
تتملكنى ولم أستطع الا الاستمرار فى الكذب فسألتها : ومن حرم على
العفاريت لبس البنطلون .. أليس فيه ستر من العرى ؟ .. ان كان
البنطلون يعتبر لديك مانعا من أن أكون فى زمرة العفاريت .. فأظن أن
المسألة بسيطة جدا .

ثم مددت يدى الى الحزام وهممت بخلع البنطلون .. وبدت من
العفريتة صرخة خجل ورأيتها ترفع يدها فتحجب بها عينيها .. بينما
انحسرت ملائتها قليلا . فأبصرت منها ما جعلنى أشك كثيرا فى سلامة
عقلى !!

يا للذكاء الذى خبا .. العقل الذى ضل .. هذه العفريتة لا بد وأن
تكون آدمية من لحم ودم ، فأغلب ظنى أنها قد سمعت من الحارس
العجوز القصة كما سمعتها وساقها حب الاستطلاع كما ساقنى .. ثم
أحست بضجتي كما أحسست بضجتها .. ففعلت كما فعلت والتقينا
نحن الاثنين .. ولكنها كانت أكثر منى ذكاء فكشفت أمرى قبل أن
أكشف تديرها .

ولم أر خيرا من أن أقوم فأحتضن الفتاة وأوسعها لثما وتقبيلا ..
وحاولت التخلص من ذراعى صائحة : (انى أمقتك .. اننى أفضل العودة
الى سجنى فى القبر المظلم) .

يا للفتاة الحمقاء .. أما زالت مصرة على أنها عفريتة !! .. اذاً
ليكن لها ما تشاء .. ورفعت الملاعة من الأرض فلففت بها نفسى
وأمسكت بالفأس .. وسألتها التكرم بلقاء آخر .

وفى اليوم التالى تسلفت الى الدار وارقدت ملابس العفاريت ..
وبعد لحظات أحسست بوقع أقدام العفريتة متشحة بملاءتها البيضاء ..
وكان بيننا حديث ذو شجون .. وعندما افترقنا كانت العلاقات بيننا
علاقة ود وصداقة . وتكرر اللقاء بيننا .. فى نفس الموعد ونفس
الطريقة .. وبدا الحب ينشب مخالبه فى قلوبنا رويدا رويدا .

وأخيرا أبصرت العفريتة للمرة الأولى فى وضح النهار .. ورأيتنى
هى الأخرى .. وليتها ما رأيتنى .. فقد كنت أسير مع احدى صاحباتى .

وفى المساء ذهبت الى الدار .. وانتظرتها فلم تحضر .. ومضت
بضعة أيام وهى ممعنة فى هجرتها .. وأخيرا التقيت بها فى ضبيحة ذات
يوم .. وأبصرت فيها آدمية فاتنة ساحرة .. فانتحيت بها جانبا وهمست
فى أذنها :

- ما ظننت قط أن العفاريت تغير من الآدميين !

- كفى عبثا .. لا أحب الخديعة .

ونظرت الى الفتاة فأدركت أن نصفى الآخر لا يمكن أن يكون
الا هى .. فعزمت على الزواج منها وأن نقطن الدار التى التقينا بها اول

مرة .. وأقمنا العرس فى الدار وملأناها بهنجة وحبورا .. ومضت بضعة أيام ونحن ننعم بالحب والهناء .

و ذات يوم أخبرتنى الفتاة المحبوبة أنها تحس بوعكة .. ولزمت الفراش وأخذت فى الذبول كأنها زهرة تذوى . حتى حلت نهايتها أخيرا .

وتركت الدار المخيفة ورأيت حارسها ينظر اللى باشفاق وسمعته يهمس : لقد حذرتك فأخبرتني أن المسألة لاتعدو الصدفة .. ليتك صدقتنى !

★ ★ ★

وَنُومَ الرَّجُلِ الْخَفِيفِ

كانت رؤية الرجل تثير الرعب في قلوبنا .. وكان منظره يبعث في أبداننا
قشعريرة ويملاً نفوسنا هلعاً .

وكان أول ما أذكره عنه هو تلك الصورة التي طبعت له في رأسي
منذ عشرات السنين ونحن ما زلنا أطفالا نلهو ونعبث .. ومازلت أذكر
حتى الآن تلك الحجرة المترامية الأطراف في منزلنا العتيق وقد أويت
وأخوى الى مضاجعنا ومعنا الخادمة التي كانت تقوم بمهمة تنويمنا ..
ولم يكن هناك أثقل علينا في ذلك الوقت من أن نأوى الى مضاجعنا ..
فقد كنا نكره النوم لأنه يحرمنا من لذة اللعب واللهو وكنا نتمنى لو
جعل الله الليل والنهار معاشاً ، حتى نستطيع أن نواصل اللعب ليل نهار .

وكانت الخادمة تضيق ذرعاً بنا .. وباصرارنا على عدم النوم ..
ففكرت في أن تخيفنا حتى نضطر الى الانكماش في الفراش فيغلبنا النوم
ونروح في سبات عميق .. وبدأت عملية التخويف فأخبرتنا أننا اذا
استمررنا على هذه العفرتة والشقاوة وأينا أن ننام ، فستضطر الى أن

تشكونا الى الشيخ (شيبون شير) وهو كفيل بأن يأكل من كل منا ذراعه أو ساقه .

وقفزنا من الفراش وأمسكنا بتلابيب الخادمة وسألناها عن يكون هذا الشيخ الشيبون وما قصته وما شكله ، وبدأت الخادمة تصفه لنا فأنبأتنا أنه جنى يبدو في صورة رجل ضخم الجثة عريض المنكبين .. ذو وجه قبيح مخيف ونظرات شريرة قاسية يتطاير منها شرر ينير له الطريق عندما يسير في الليل وأن أسنانه حادة كالسكاكين وأظافره قاطعة مدببة كالمخالب وأن أقدامه ليست كأقدام الإنسان بل هي أشبه بحوافر الخيل .. وأنه مولع يأكل الأطفال وخاصة الأشقياء منهم والذين يرفضون النوم .

وتشككنا أول الأمر في حديث الخادمة .. ولكنها أرتنا أثر جرح في ساقها وأكدت لنا أنه عضه من الشيخ (شيبون) عندما رفضت النوم ذات ليلة وهي طفلة صغيرة .. فبدأت عقولنا الصغيرة تؤمن أن الأمر ليس به خدعة .. وزادنا يقينا من صحة كلامها تلك الأصوات الصادرة عن حوافر الخيل التي تجر عربات الحنطور والتي تقرع أرض الطريق قرعات منتظمة .. فقد أكدت لنا الخادمة أنها وقع أقدام الشيخ (شيبون) وهو يبحث عن الأطفال الأشقياء .

وهكذا رسمت الخادمة في أذهاننا صورة مروعة لذلك الشخص مخيف الذي ابتكره ذهنها وأوحى به خيالها .. حتى تستطيع اربابنا نت الحاجة .. ولتسوسنا به اذا استعصى عليها أمرنا .

والى هنا ليس فى الأمر غرابة أو عجب ، فما من طفل الا وله بعب يخيفونه به حتى يرتدع ويزدجر ، وما أظن الشيخ شيبون يختلف فى شىء عن (أبو رجل مسلوخة) أو (عفريت الليل ، بسبع رجلين) الى

آخر هذه الشخصيات الخيالية التي ابتكرت لإرهاب الأطفال .. ولكن العجيب حقا هو أن ينقلب شيون فيصبح حقيقة لا وهما .. وأن نراه أمامنا جسدا متحركا .. لا طيفا ولا شبحا ، وانسانا من دم ولحم لا خرافة ابتكرتها رأس خادمة .

ففى ذات يوم وقد أخذنا نلهو بالكرة أمام المنزل قذف أحدها بها فأصابت ظهر أحد المارة .. وعدوت لآخذها .. فاستدار الرجل الى بوجه غاضب ، وتسمرت قدمائى فى الأرض ولم أستطع أن أكنم صرخة فزع انطلقت من صدرى .. فلقد كان الرجل هو (الشيخ شيون شير) . نعم أقسم أنه هو !! فهذا الجسد الطويل الضخم كأنه المارد وهذا الوجه القبيح الدميم ، وتلك النظرات القاسية الشريرة الصارمة .. وهذا الشرر الذى يكاد يتطاير من عينيه .. والأظافر التى تبدو كأنها مخالب طير كاسر ، وتلك الملابس العجيبة الفضفاضة . كل هذا لا يكون الا له .. نعم انه هو بعينه بلا أدنى ريب ولا شك .

ووجدت الرجل يمسك بالكرة فينشب بها أظافره ، ويمزقها اربا اربا ، ثم يقذف بها فى وجهى ويمضى فى سبيله ووجدتني أقف فى مكانى مذهولا مشدوها .. وقد أخذت عيناى تتبعان الرجل .. وتبحثان عن قدميه .. حتى يتأكدان أنهما حوافر خيل .. ولكن الرجل اختفى .. دون أن أستطيع تمييز قدميه فقد أخفتهما ملابسه الفضفاضة الجرارة .. وان كان وقعهما على أرض الطريق يشبه الى حد كبير تلك الطرقات التى كنا نسمعها فى بهمة الليل .

وعدت أدراجى أحمل أشلاء الكرة التى فتك بها الرجل وأنا أرتجف من الفزع فاذا ببقية الأطفال قد ولوا الى دورهم مذعورين .

وفي الليل أنبأت الخادمة هامسا : اننى رأيت شيبون ، فبدرت
منها ضحكة عالية ولكنها سرعان ما كست وجهها ملامح الجذ وأنباتنى
هامسة :

- ألم أحذرك منه ؟ اياك بعد ذلك والعفرتة .. لقد اكتفى هذه
المرة بتمزيق الكرة .. ولكن لا أظنه سيكتفى فى المرة القادمة.
الا بتمزيق جلدك وسحق عظامك .

وشجع هذا الحادث على أن تمنع الخادمة فى اخافتنا بالشيخ
شيبون ما دام قد دخل فى روعنا أنه حقيقة لا خرافة .. حتى حدث
ذات يوم أن رأيت بعينها ذلك الرجل الذى رأيته .. ومن ذلك الحين
وهى لا تتحرر على ذكر اسمه قط .. فلقد صدمتها رؤيته صدمة كادت
تذيب قلبها .

كان ذلك قبيل الغسق وقد خرجت والفتاة لقضاء حاجة من
السوق .. ولم نكد نبتعد عن الدار حتى وقع بصرنا على منظر يعث
الرعب فى نفوسنا .. فقد سمعنا فى البدء صراخ طفل .. فلما اقتربنا
من مكان الصراخ تسمرت قدمائى فى الأرض فقد أبصرت شبح عملاق
تبينت فيه ذلك الرجل الذى مزق لنا الكرة والذى استطعت أن أجزم
أنه هو نفسه الشيخ شيبون ذو الحوافر والمخالب .. وقد قبض باحدى
يديه على عنق الطفل .. وبالأخرى على هراوة أخذ ينهال بها على جسده
بقسوة ووحشية .

وأمسكت بالخادمة بكلتا يدي كما يتشبث الغريق بلوح من
الخشب .. وخبأت وجهى فى ثيابها وصححت بصوت مبحوح مرتعد :

- شيبون !!

ويستطيع المرء أن يتخيل ما أصاب الفتاة من ذعر وفزع وهي ترى تلك الصورة التي ابتكرها ذهنها وحشدت فيها كل ما طاف برأسها من أصناف مرعبة مخيفة .. قد تجسدت وصارت كائنات حيا هو ذلك المخلوق المرعب الذي لا يفصله عنها الا خطوات معدودات .

وأسلمت الفتاة ساقها للريح وقد أمسكت بي من يدي .. وأخذنا نعدو كمن به مس من شيطان رجيم .. وقد كاد يقتلنا الرعب .. ومن ذلك اليوم وذكر الرجل لا يأتي على لسان الفتاة .. فقد كان ذكره يخيفها أكثر مما يخيفنا .

وذاع أمر الرجل وانتشر صيته .. وكأن غريبا قد نزع الى الناحية وقطن إحدى الدور القديمة المتواضعة وأنشأ به حانوتا لبيع وشراء الأشياء القديمة ، وعرف بين أهل الناحية باسم (الشيخ شيبون شيبير) رغم أن اسمه الحقيقي لايمت الى هذا الاسم بصلة ولا شبه .. وكان أبرز ما في الرجل ذلك الذعر الذي يتركه في نفس كل من يراه مهما كان عمره أو كانت شجاعته .. وكان كذلك شديد الكراهية للأطفال والقسوة عليهم حتى بدأ الناس يتهايمسون أن الرجل يخطف الأطفال ليضعهم في قبو يقع في أسفل حانوته ثم يلجأ الى تعذيبهم حتى يموتوا من فرط الألم .

ومرّت السنون وشبنا عن طوق الطفولة ، وقد بقيت منها ذكريات بعيدة باهتة .. وتغير كل شيء فينا الا شيئا واحدا ظل كما هو .. ذلك هو بغضنا للشيخ شيبون وخوفنا منه .

فقد استمر الرجل غامضا كما هو .. ورغما عما فعلته به السنون من أهدوداب في الظهر واضمحلال في الجسد .. فقد ظل على ما هو

عليه من قسوة وصرامة ، واستمرت نظراته الى الناس مليعة بالبغض والكراهية .. ولم يكن لكبر سنه أى أثر فى تخفيف ذلك الذعر الذى كان يعترى كل من رآه ، والرعب الذى يملأ قلب كل من صادقه .

واستمرت السنون فى السير فاذا بى وقد أضحيت زوجا ، ثم أبا لطفل كأنه الدمية ، وأعاد للتاريخ نفسه ، فاذا بابنى يخيفونه بالشيخ شيون عندما يستعصى عليهم تنويمه تماما كما فعلوا مع أبيه من قبل .. وسألنى الطفل ذات يوم عما اذا كنت رأيت الشيخ شيون ، وعما اذا كنت قد رأيت حوافره .. فأفهمته أنه آدمى مثلنا .. فلا حوافر له ولا مخالب .. فبدأ الشك على وجه الطفل وأنبأنى أنه يريد أن يراه .

ولم يكن يخطر ببالى قط أن الظروف ستضطرنى الى الذهاب الى الرجل فى حانوته وأن يرافقنى طفلى الضغير المحبوب عند زيارتى لذلك الرجل المخيف ، ولكن الأقدار أحيانا تجبر الإنسان على أن يفعل ما لم يكن يتصور فعله .. ففى ذات يوم خرجت مع طفلى أجول جولة فى الطرقات وأنخذنا نسير الهوينى وأنا أجييه على أسئلته التافهة التى لم يكف عنها لحظة واحدة منذ بدأنا السير .. ورأيتنى أقترب من حانوت انشيخ شيون ، ولم أدر أى شيطان دفعنى الى أن أسأل الطفل ضاحكا :

- ألا تريد أن ترى الشيخ شيون ؟ هذا هو حانوته !

ورأيت بالطفل لهفة الى رؤيته ، فقد كان يريد أن يتأكد أنه كائن حقيقى .. وأنه مخيف كما يصفونه .. وأحسست بنفسى رغبة الى أن أجلس معه وأحادثه .. وأن أرى من قرب الرجل الذى استمرت ذكره أو رؤيته حتى من بعيد تثير فى نفسى الذعر ما يقرب من خمسة وعشرين عاما .

ودخلت الحانوث ولقيت الرجل وجها لوجه فلم أستطع أن أمنع
موجة من الذعر سرت في جسدى .. وأحسست بالطفل يتشبث بشيبي
ويخبىء رأسه فيها .

وطلبت الى الرجل أن يرينى بعضا من التحف القديمة .. فذهب
ينقب ثم عاد الى بعض من التماثيل والأواني القديمة ، وأخذ يشرح
لى قيمة كل منها .. وبدأ الخوف يذهب من نفسى رويدا رويدا .. وحل
محلّه الاطمئنان .. وكان حديث الرجل طليبا لطيفا .. فبدأت انساق معه
فى الحديث حتى كدت أنسى أنه (الشيخ شيون) .. ووجدت الفرع
قد ذهب أيضا من نفس الطفل .

لقد رأيته يقترب من الرجل فى سكون .. ثم ينحنى ببطء ويمسك
بشوبه الذى يكاد يمس الأرض فيرفعه مرة واحدة ويكشف عن قدمي
الرجل وساقيه !

لقد كان الطفل يريد أن يتأكد هل هو ذو أقدام مثلنا أم أنه يسير
على حوافر !

ورأيتنى أنا الآخر أثبت نظرى فى أقدامه حتى أتأكد مما يريد
أن يتأكد منه الطفل .

وجدت أن قدمي الرجل طبعاً لا تكاد تختلفان عن أقدامنا فى
شئ .. فمددت يدي لأجذب الطفل ولأؤنبه على سوء فعلته .. ولكن
الرجل المخيف لم يترك لى الفرصة كى أفعل ما أردت .. فقد رفع كفه
الثقيلة التى تشبه مخالب الوحش ثم أهوى بها على وجه الطفل فى صفة
لم تبصر عيناي أشد منها وصاح بغضب :
- كان خيرا لك أن تحسن تربيته .

وأبصرت الدماء تسيل من أنف ابني المحبوب .. ولا أظن أى
إنسان يستطيع أن يتصور وقع ذلك فى نفسى وأنا أبصره والدماء تسيل
من أنفه بعد أن صفعه ذلك الوحش القذر الكريه .

لقد اندفعت من مكانى أريد أن أحطم رأس الرجل .. ولكنى
وجدت الطفل قد وقف يعترض طريقى وأخذ يصيح بنى :
- اتركه يا بابا فهو آدمى مثلنا .. وليس شيطانا أو جنيا .

ونظرت الى الرجل .. فاذا بالتجهم قد زال عنه .. وحلت محله
علامات آلام تعتمل فى جوفه كأن أحشائه تتمزق ، ورأيته ينهار على
أحد المقاعد .. وأبصرت الدموع تنهمر من عينيه بشدة .

ومد الرجل يديه فاحتضن الطفل بحتان ورفق وأخرج منديلا من
حيبه يجفف به الدماء التى سالت من أنفه وسمعته يهمس الى بصوت
مخجول :

- خمسة وعشرون عاما استطعت أن أكبت فيها ذلك الحنان
الذى يصطخب فى صدرى .. وأن أسدل على وجهى ذلك القناع
البييض من القشوة ، لقد نجحت فى أن أقسو على الأطفال وأن أتجهم
نهم ، ولنولا ذلك لما استطعت أن أعيش لحظة .. ولقتلى الحزن ..
لقد كان كل طفل أراه يشير فى نفسى الذكرى الأليمة .. ويقطع نياط
قلبى ويمزق أحشائى .. وكان يخيل لى أحيانا أن أتبنى كل طفل أراه ..
أو أن أجمع أطفال العالم كلهم فأحتويهم فى صدرى .. فقد كنت أرى
فى كل طفل ولدى الغائب المحبوب .. وكم كنت أعدو خلفهم فى
الطرق أظنه بينهم .. حتى ظننى الناس مجنوننا .. وخشوا على أطفالهم
منى وأصبح الأطفال يتجنبوننى ويفزعون منى ، وكم انتظرت أوبته حتى
طال بى الانتظار وفاض بى اليأس فصمت على النسيان وعزمت على
أن أقتل ذلك العطف الذى فى قلبى .. وأن أتجهم وأقسو .. ومرت على

السنون ، فأصبحت كما ترى رجلاً مخيف .. وظننت أنني سنلوت
ونسيت حتى دخلت الى حانوت بطفلك فتوجست منه خيفة .. فقد
أحسست بعض الحنين .. لشدة الشبه بينه وبين طفلي المحبوب ..
فصنمت على أن أقسو عليه .

وثار غضبي عندما حاول أن يكشف عن ساقى ليرى «حوافري»
فلطمته هذه اللطمة العنيفة التي أسالت الدم من أنفه .. ثم شعرت بطعنة
في صميم قلبي عندما منعك من الاعتداء على لأننى آدمى مثلكم وليس
بشيطان كما تزعمون . آه لو كانت الأرواح تعود الى الأرض مرة أخرى
لأقسمت أن هذا هو طفلي .. فهو أول من أراه يحنو على بعد أن ذهب
ولدى .. اتى لأتخيله الآن وقد امتطى حماره ، ووضع عليه السلال
الفارغة .. فقد كان ذلك هو خير ما يلهيه ويطره .. يجول الطرقات
مقلدا صوت الباعة حتى يذهب الى شاطئ النهر .. فيعبث بحماره في
الماء ثم يعود الى الدار .

وفى ذات يوم خرج كعادته ، وقد علا غناؤه ورنّت ضحكاته ..
وكنت أشعر بتشاؤم يملأ قلبي .. فقد فقدت أمه المحبوبة فى مثل ذلك
اليوم منذ بضع سنين خلت .

ونخيل الى أن الطفل تأخر .. ولكننى ظننت أن ذلك مرجعه ما
بقلبي من تشاؤم .. فتماسكت بأطراف الصبر حتى حل الظلام ..
وقفزت من مكانى وأخذت أعدو فى الطريق كالمجانين ، وكان أول
ما صادفنى .. الحمار بلا شيء على ظهره سوى السلال الفارغة .

ونخيل الى أن قلبي على وشك أن يقفز من مكانه .. وأمسكت
برأس الحمار من فرط ما بى من جنة أسأله عن الطفل .. واستمر الحمار
مطأطئ الرأس فى صمت عميق .. ثم استدار بعد برهة وسار فى طريقه
وأنا أتبعه .. حتى انتهى بى الى شاطئ النهر .

ولم أجد هناك آدميا أستطيع أن أستدل منه على الطفل .
ولجنوني .. أخذت أجرى هنا وهناك .. حتى أنهكنى التعب ، والحمار
واقف أمام بقعة على الشاطئ لا يتحرك ، وأخيرا لم أستطع الا أن أجلس
بجوار الحمار أرقب وأنتظر .

وجلس في مكاني وعيناي مثبتة بالماء .. أربعة أيام بلا طعام
ولا شراب ، والحمار واقف بجواري وعلى ظهره السلال الفارغة .. حتى
حملني الناس الى الدار كأنى جثة هامدة ..

وهنا رأيت طفلي يقفز من على ركبتى ثم يشير بأصبعه الى نهاية
الطريق ويصيح قائلا :
- أنظر يا أبته .. هذا الطفل الذى امتطى حماره وامامه السلال
الفارغة .

ومدّ كل منا رأسه فأبصرنا فى نهاية الطريق طفلا شديدا الشبه
بذلك الطفل الذى مازال الرجل ينتظر أوبته . وندت من الرجل صرخة
خافتة وحاول القيام ولكنه لم يستطع كأنما أصيب بشلل فأشار الى أن
أعدو وراء الطفل فأحضره .. وقفزت من مكاني وعدوت وراء الطفل
لأحضره اليه حتى أخفف ما بنفسه من لوعة .. ولكنى لم أكد أصل
الى نهاية الطريق حتى كان الطفل قد اختفى .. وعدت أدراجى وبى
حنق على طفلي لأنه حرّك فجیعة الرجل ونكأ جرحه بإشارته الى ذلك
الطفل ، وصممت أن أبذل كل ما فى وسعى حتى أرفه عن نفسه وأزيل
ما بها من حزن ولوعة .. ولكنى لم أكد أصل الى الحانوت ، وأحدث
الرجل حتى وجدت أنه لم يعد فى حاجة الى ترفيه أو تسلية فقد كان
أبعد من أن يصل اليه حديثى .. لقد فاضت روحه وذهب الى حيث
يستطيع أن يلقي طفله المحبوب .